

الخلق

عناصر الموضوع

٤٢	مفهوم الخلق
٤٣	الخلق في الاستعمال القرآني
٤٤	الألفاظ ذات الصلة
٤٦	الله تعالى خالق كل شيء
٦١	بداية الخلق
٦٦	معالم الخلق
٧٦	مقاصد الخلق
٨١	دلالة الخلق
٨٥	التفكير في المخلوقات

مفهوم الخلق

المعنى اللغوي والاصطلاحي:

الشاء واللام والقاف أصلان: أحدهما تقدير الشيء، كقولهم: فلان خليق بكذا، وأخلق به، أي: ما أخلقه، أي: هو ممن يقدر فيه ذلك، وأما الأصل الثاني فملاسة الشيء، كقولهم: صخرة خلقاء، أي ملساء. ويقال: اخلولق السحاب، أي: استوى، ومن هذا الباب أخلق الشيء وخلق، إذا بلي. وأخلقته أنا: أبليتته^(١).

«والخلق في كلام العرب: ابتداء الشيء على مثال لم يسبق إليه، وكل شيء خلقه الله فهو مبتدئه على غير مثال سبق إليه»^(٢)، وعلى هذا فالخلق المقصود في هذا البحث على معنيين: أحدهما: الإنشاء على غير مثال أبدعه، والآخر: التقدير.

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

لم يوقف على معنى الخلق اصطلاحاً عند أي من المتقدمين، ولا حتى المتأخرين، ومن ثم فإنه تم وضع تعريف له بالاعتماد على أصله اللغوي، حيث يكون تعريفه اصطلاحاً: «كل ما أوجده الله سبحانه في العالمين، مما علمه البشر وما لم يعلموه، مع تقدير الله تعالى لكل هذه الموجودات»، وإنما ذكرت الشمولية في الإيجاد في قول الباحث: «كل ما أوجده الله سبحانه»؛ حتى يجمع التعريف ذكر كل المخلوقات، وذكرت جملة «العالمين»، مما علمه البشر وما لم يعلموه؛ لبيان أن هناك عالين لا يعلمها البشر، والله تعالى خالقها، فهو ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

وذكرت جملة «مع تقدير الله تعالى لكل هذه الموجودات»، فهو الله تعالى الذي تقرّب بأنه خالق كل شيء، ومالكه، القادر على ما يشاء، المقدر لجميع الأمور، المتصرف فيها، المدبّر لها، ليس له في ذلك كله شريك^(٣).

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢١٣.

(٢) لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٨٥.

(٣) انظر: تسهيل العقيدة الإسلامية، عبد الله الجبرين، ص ٤١.

الخلق في الاستعمال القرآني

وردت مادة (خلق) في القرآن الكريم (٢٥٢) مرة^(١).
والصيغ التي وردت هي:

المثال	عدد المرات	الصيغة
﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٢٩]	١٥٧	الفعل الماضي
﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٧]	٢٧	الفعل المضارع
﴿قَالَ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]	١٢	اسم فاعل
﴿ثُمَّ مِنْ مَّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُسِبِينَ لَكُمْ﴾ [الحج: ٥]	٢	اسم مفعول
﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]	٥٢	مصدر
﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَالِقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾ [الحجر: ٨٦]	٢	صيغة المبالغة

وجاء الخلق في القرآن على أربعة أوجه^(٢):

- الأول: الدين: كما في قوله تعالى: ﴿لَا بُدَّ لِي لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]. يعني: لدين الله.
الثاني: الكذب: قال تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]. يعني: تخرصون كذبًا.
الثالث: التصوير: قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠]. يعني: وإذ تصوّر من الطين كهيئة الطير.
الرابع: الإيجاد: قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]. يعني: أوجدهما ولم يكونا شيئًا.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٢٤١ - ٢٤٤.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان، ص ٩٢ - ٩٣، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٢٠١ - ٢٠٢، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٢٨٤ - ٢٨٥.

الإنشاء لغةً:

الإنشاء يدلّ على ارتفاعٍ وسمو^(١)، يقال: أنشأ الله الخلق، أي: أحدث وأوجد من عدم^(٢).
الإنشاء اصطلاحًا:

إيجاد الله تعالى لكل المخلوقات من عدم، مع ما يبيّن عظيم قدرة الله تعالى وأنه يعلي ويرفع من يشاء.

الصلة بين الإنشاء والخلق:

يشترك الإنشاء مع الخلق في أن في كل منهما إيجادًا من عدم.

البعث لغةً:

البعث: إحياء الله تعالى للموتى^(٣).

البعث اصطلاحًا:

إحياء الله تعالى الأموات وإخراجهم من قبورهم وهم أحياء للحساب وللجزاء^(٤).

الصلة بين البعث والخلق:

بينهما عموم وخصوص؛ فالبعث خلق خاص، يستعمل في إحياء الموتى.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/٤٢٨.

(٢) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/٩٢٠.

(٣) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٥/١٦٩.

(٤) مباحث العقيدة في سورة الزمر، ناصر الشيخ ص ٥٦٧.

الله تعالى خالق كل شيء

أولاً: إثبات صفة الخلق لله عز وجل:

إن وجود هذا الكون الكبير، وعظمته ودقته، وجماله الباهر، وما فيه من سماوات وأرض، وشمس وقمر، ونجوم وكواكب، وليل ونهار، وجبال وتلال، وبحار وأنهار، إلى غير ذلك من المخلوقات التي لا تعد ولا تحصى، سواءً كانت مرئية لنا أو غير ذلك؛ لتدل على أن لهذا الكون المبهر خالقاً واحداً ينزه عن كل صفات النقص والعيب، وينزه كذلك عن كل ما يشبه صفات المخلوقين. فهذا الخالق يتصف بكل صفات الكمال المطلق في ذاته العلية، وصفاته الجليلة، وفي أفعاله القديرة.

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَكُمْ تَنْقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

فالله سبحانه أمر العباد بعبادته جل وعلا، وأتبع هذا الأمر بما يدل على وجوده تعالى، -وهو الخالق الصانع- من خلق الناس المخاطبين، وخلق الذين كانوا من قبلهم، وخلق السماء، وخلق الأرض، وخلق الثمرات من الماء النازل من السماء

إلى الأرض (١).

ويقول عز وجل: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْثِيِّ الْيَلِّ النَّهَارِ يُطَلِّبُهُ حَيْثُهَا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

ففي هذه الآية يبين الله سبحانه صفات ربوبيته من خلق السماوات والأرض، واستوائه سبحانه على العرش، وتغشية الليل والنهار، وجعل الشمس والقمر والنجوم مسخراتٍ بأمره جل وعلا، وبعد أن ذكر تدبيره لهذا الكون، أتبعه بأن الخلق والأمر له وحده سبحانه، حيث قال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ﴾.

ومعلومٌ أن تقديم شبه الجملة من الجار والمجرور على المبتدأ يفيد الحصر والقصر، فقد أخبر الله تعالى أن الخلق والأمر له وحده، فيختصان به لا بأحدٍ غيره (٢).

وقال الألوسي في تفسيره: «ففي ذلك إشارة إلى أنهما -الخلق والأمر- طبق الحكمة وفي غاية الكمال، ولا يقال ذلك في غيره تعالى، بل هو صفة خاصة به سبحانه» (٣).

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢/٣٢٣.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/٢٤١.
(٣) روح المعاني، ٤/٣٧٨.

ومشاق^(١).

وعند قوله تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ يَخْذُ لَدَا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: فأفردوا أيها الناس لربكم الذي نزل الفرقان على عبده محمد نبيه صلى الله عليه وسلم الألوهية، وأخلصوا له العبادة دون كل ما تعبدونه من دونه من الآلهة والأصنام والملائكة والجنّ والإنس، فإن كل ذلك خلقه وفي ملكه، فلا تصلح العبادة إلا لله الذي هو مالك جميع ذلك. وقوله: ﴿فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ يقول: فسوى كل ما خلق، وهياًه لما يصلح له، فلا خلل فيه ولا تفاوت»^(٢).

والغاية من ذكر الله تعالى لبدیع خلقه وصنعه في الكون هي بيان أحقية الله تعالى وحده بالعبادة، وإفراده سبحانه بالسمع والطاعة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِنَعْلَمَوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

قال السعدي: «أخبر تعالى أنه خلق الخلق من السماوات السبع ومن فيهن، والأرضين السبع ومن فيهن، وما بينهما، وأنزل الأمر، وهو الشرائع والأحكام

ثم ختم الله تعالى الآية ببيان أنه رب العالمين، الذي له صفات الكمال المطلق، والمنزه عن جميع النقائص والعيوب.

وإثبات صفة الخلق والأمر لله تعالى وحده، يستلزم أن يكون خالقها متصفاً بالقدرة التامة، والعلم الشامل، والحكمة البالغة، والإرادة النافذة.

﴿بَارِكْ اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ﴾ أي: تنزه وتقدس عن كل نقص وعيب، ويدخل في هذا تنزهه تعالى عن أي نقص في خلقه وأمره، وهذا مصداق لقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ ۗ فَإِنَّجِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].

والمعنى: لا ترى تفاوتاً، أي: نقصاً أو عيباً أو عدم تناسق في خلق الله تعالى السماوات وغيرها من مخلوقاته عز وجل. والمقصود من هذا هو التعريض بالمشركين؛ لأنهم أضاعوا النظر في الكون، والاستدلال بما فيه على وحدانية الله تعالى بما تشاهده أعينهم من نظام دقيق ومحكم.

وإضافة الخلق إلى اسم (الرحمن) يدل على «أن هذا النظام مما اقتضته رحمته بالناس؛ لتجري أمورهم على حالة ثلاثم نظام عيشهم؛ لأنه لو كان فيما خلق الله تفاوت، لكان ذلك التفاوت سبباً لاختلال النظام، فيتعرض الناس بذلك لأهوال

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٨/٢٩.

(٢) جامع البيان، ١٩/٢٣٦.

الدينية التي أوحاها إلى رسله لتذكير العباد ووعظهم، وكذلك الأوامر الكونية والقدرية التي يدبر بها الخلق، كل ذلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها، وإحاطة علمه بجميع الأشياء، فإذا عرفوه بأوصافه المقدسة وأسمائه الحسنى وعبدوه وأحبوه وقاموا بحقه، فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر معرفة الله وعبادته، فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذلك الظالمون المعرضون»^(١).

وعبر باسم الجلالة (الله) في بداية الآية الذي له جميع صفات الكمال التي منها القدرة الشاملة على خلق المخلوقات، فأخبر عن ذلك بما يدل عليه؛ لأن الصنعة تدل على الصانع، فهو وحده الذي أوجد المخلوقات بشكل عام من عدم، وهذا بقدرة الله تعالى على وفق ما دبر بعلمه سبحانه، فالناس يشاهدون عظمة هذه المخلوقات، ويشهدون أنه لا يقدر عليها إلا من هو تام العلم وكامل القدرة، ألا وهو الله عز وجل^(٢).

وأخبر الله تعالى في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۗ أَمْ تُرْتَبِئُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾

يَعْتُونَ ﴿٦١﴾ [النحل: ٢٠-٢١].

أن الأصنام التي يعبدونها المشركون من دون الله تعالى لا تتصف بالخلق؛ بل هي مخلوقة وليست خالقة، فهي جمادات لا أرواح فيها، ولا تسمع ولا تبصر، ولا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا، فكيف يعبدونها هؤلاء المشركون، وهم أفضل منها بالحياة^(٣).

فأين العقول والأبصار التي تعتبر وتتعظ ببديع خلق الله تعالى وصنعه المتقن، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

أي: إن هذه المخلوقات الوارد ذكرها في الآية هي قوم «ينظرون بعيون عقولهم ويعتبرون بها، فيستدلون بهذه الأشياء على قدرة موجدتها، وحكمة مبدعها، ووحدانية منشئها»^(٤).

ولما كانت صفة الخلق من أبرز صفات الله عز وجل، كان له اسمان مشتقان منها، وهما: الخالق والخالق.

فأما الخالق:

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٩٤/١٠.

(٤) مدارك التنزيل، النسفي، ١/٤٨٨.

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٧٢.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٧٢/٢٠.

خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
وَكَيلٌ ﴿[الأنعام: ١٠٢].

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ
كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَن تَوْفَكُونَ﴾ [غافر:
٦٢].

وقوله: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَن تَوْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

الثاني: التهيئة والتقدير والتشكيل
والتجميع والتركيب والتصنيع والتكوين.

ومن هذه الآيات على سبيل المثال لا
الحصر: قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ
الْمَخْلُوقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وقوله: ﴿الَّذِينَ بَعَلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنُ
الْمَخْلُوقِينَ﴾ [الصفات: ١٢٥].

والخلق على هذا المعنى يدخل فيه
البشر، أي: أن الإنسان صنع الشيء من
المادة التي خلق الله تعالى أصلها، فما
ينسب إلى الإنسان وعقله البشري من خلق
أشياء مبهرة، فهذا يعني أنه صنعها وركبها من
أشياء موجودة مخلوقة من الله تعالى، ويبقى
العقل البشري من مخلوقات الله تعالى.

إذًا فالله تعالى هو الذي خلق المادة التي
هي أصل الأشياء، كما خلق عقل الإنسان،
وما أودع فيه من ذكاء وموهبة، استخدمها
ذلك العقل في مجال التكنولوجيا وغيرها،
 ويبقى الله تعالى هو الخالق وحده.

قال الزجاج: «الخالق: أصل الخلق
في الكلام: التقدير، يقال: خلقت الشيء
خلقًا، إذا قدرته. فالخلق في اسم الله تعالى
هو ابتداء تقدير الشيء، فالله تعالى خالقها
ومنشئها وتمامها ومدبرها»^(١).

وقال د. سعيد القحطاني في معنى
الخالق: «الذي خلق جميع الموجودات
وبرأها، وسواها بحكمته، وصورها بحمده
وحكمته، وهو لم يزل ولا يزال على هذا
الوصف العظيم»^(٢).

إذًا فالخالق هو الذي أوجد جميع الأشياء
بعد أن لم تكن موجودة، وقدر أمورها في
الأزل بعد أن كانت معدومة، ويكون أيضًا
بمعنى أنه هو الذي ركب الأشياء تركيبًا،
ورتبها بقدرته ترتيبًا.

وقد ورد اسم الله تعالى (الخالق) اثني
عشرة مرة في القرآن الكريم، وهو على
صيغة اسم الفاعل، وتدل مادته على معنيين
رئيسيين:

الأول: إيجاد الشيء من العدم، أو ابتداع
مخلوق جديد ليس له سابق.

ولا شك أن هذا المعنى خاص بالله
تعالى، ولا يشاركه فيه أحد، ومن هذه
الآيات على سبيل المثال لا الحصر: قوله
تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

(١) تفسير أسماء الله الحسنى، ص ٣٥، ٣٧.

(٢) شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب
والسنة، ص ١٧١.

ومن ثم فإن صفة الخلاق أبلغ من صفة الخالق.

ومن المعلوم أن منهج السلف الصالح في أسماء الله تعالى الحسنى هو التسليم بها دون تكييف أو تأويل أو تعطيل أو تشبيه، فإن شرح هذين الاسمين قائم على معرفة معناه بما يتبعده، وبما يكون الإيمان من خلاله بما دلّت عليه هذه الصفات من المعاني العظيمة؛ فهو مختص بالذات العليّة (٢).

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

والمعنى: إن الله تعالى شرع في بيان أصل النوع الإنساني، وهو آدم عليه الصلاة والسلام، فقد خلقه الله تعالى، ثم جعل نسله نطفاً في أصلاب الآباء، ثم قذفت في أرحام الأمهات، فصارت في حرز حصين من أول وقت الحمل إلى حين وقت الولادة، ثم تطور خلق النطفة فأصبحت علقة، وهي الدم الجامد المتعلق بجدار الرحم، ثم أصبح هذا الدم الجامد مضغة، أي: قطعة لحم صغيرة بمقدار ما يمضغ، ثم صارت هذه المضغة

فالإجازات العلمية العديدة ما هي إلا مكتشفات صنعها وركبها العقل البشري، أما أصل هذه الإنجازات فالله تعالى هو خالقها من العدم.

وإن معنى الخالق قائم على المعنيين معاً.

وأما الخلاق:

ورد ذكر هذا الاسم مرتين في القرآن الكريم، وهما: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَالِقُ الْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٦].

وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَالِقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

وكلمة (الخلاق) صيغة مبالغة على وزن (الفعال).

قال ابن عاشور في تفسير آية سورة يس: «أي: هو يخلق خلائق كثيرة، وواسع العلم بأحوالهم ودقائق ترتيبها» (١).

والفرق بين الاسمين أن (الخالق): اسم فاعل، وهو الذي ينشئ الشيء من العدم بتقدير وعلم، ثم بتصنيع وخلق عن قدرة. فالخالق هو الذي قدر بعلم، وصنع بقدرة، فخلق من عدم.

أما (الخلاق): صيغة مبالغة من الخالق الموصوف بخلق غيره، وهو الذي يبدع في الخلق كمّاً وكيفاً بقدرته الشاملة المطلقة،

(٢) انظر: العقيدة الصحيحة وما يضادها، ابن باز ص ٦.

(١) التحرير والتنوير، ٢٣/ ٧٩.

ومعنى البركة في قوله: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ يرجع إلى المعاني الآتية:

- الامتداد والزيادة، فكل ما زاد على الشيء فقد علاه.
- البركات والخيرات، فكلها من الله تعالى.
- قيل: أصله من البروك، وهو الثبات، فكأنه قال: والبقاء والدوام والبركات كلها من الله تعالى، فهو المستحق للتعظيم والثناء^(٤).

ثانيًا: إقرار المشركين بالخلق لله تعالى:

سبقت الإشارة إلى أن الخلق صفة من الصفات الربوبية لله تعالى، وهو يدخل تحت القسم الأول من أقسام التوحيد، وهو توحيد الربوبية، ويقصد به: «توحيد العبد ربه سبحانه بأفعاله الصادرة منه، كالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، وإنزال المطر، وإنبات النبات، والنفع والضرر، وتدبير جميع الأمور إلى غير ذلك من أفعال الرب سبحانه»^(٥).

وقد كان المشركون في عصر النبوة يعتقدون أن هذه الأمور هي من خصائص الله تعالى، ويقرون ويعترفون أن أصنامهم

عظامًا، ثم جعل الله تعالى اللحم كسوة لهذه العظام، ثم أنشأه الله تعالى وخلقه خلقًا آخر مباينًا ومختلفًا عن الخلق الأول، حيث نفخ فيه الروح، فصار كائنًا حيًا بعد أن كان جمادًا لا روح فيه، وأصبح سميعًا بصيرًا ناطقًا، كما أودع فيه الله عز وجل من غرائب الخلق وعجائبه ما لا يعد ولا يحصى ظاهرًا وباطنًا^(١).

﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾ أي: تعالى شأنه في علمه الشامل، وقدرته الباهرة، وذكر اسم الجلالة (الله)؛ وذلك «لتربية المهابة، وإدخال الروعة، والإشعار بأن ما ذكر من الأفاعيل العجيبة من أحكام الألوهية، وللإيدان بأن حق كل من سمع ما فصل من آثار قدرته عز وعلا أو لاحظه أن يسارع إلى التكلم به إجلالًا وإعظامًا لشؤونه تعالى»^(٢).

وكلمة ﴿أَحْسَنُ﴾: على وزن (أفعل) التفضيل، أي: أحسن الخالقين خلقًا، بمعنى المقدرين تقديرًا، وحذف المميز لدلالة كلمة ﴿الْخَالِقِينَ﴾ عليه^(٣).

وإن هذا لا يعني أن هناك خالقين غيره، وأن الله تعالى هو الأفضل فهذا كفر، ولن يكون ذلك مراد القرآن، وإنما يعني إعطاء البرهنة الكاملة على عظيم قدرة الله تعالى، وأنه خلق فأحكم وأتقن.

(١) انظر: تفسير المراغي، ٨/١٨.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٦/١٢٦.

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٣/٢٦٥.

(٥) الصواعق المرسله الشهائية، سليمان بن سحمان ص ٣٠٤.

من صور المناظرات التي استخدمها القرآن في الرد على الخصوم ليلزم به أهل العناد^(٢). ومن الأمثلة على ذلك: الاستدلال

بالخلق على وجود الخالق كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾^(٣٥) ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾^(٣٦) ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾^(٣٧) ﴿أَمْ لَهُمْ سُلُمٌ مَنَعَهُمْ مِنْ مُنْقَلَبٍ فَبِمَاتٍ مُسْتَعْتَبِينَ﴾^(٣٨) ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾^(٣٩) ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾^(٤٠) ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾^(٤١) ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾^(٤٢) ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٤٣) [الطور: ٣٥-٤٣].

وكذلك الاستدلال بالمبدأ على المعاد، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

كما دلّ القرآن الكريم في مواطن عدة من سوره على إقرار المشركين بربوبية الله تعالى مع إشراكهم به في العبادة، ومن هذه الآيات: قوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا، فكيف تمتلكه لمن يعبدها، فهي لا تنزل الغيث، ولا تأتي بالرزق، ولا تملك موتا ولا حياة ولا نشورا، كما أنها لا تسمع ولا تبصر، فكانوا يعترفون أن الله تعالى هو وحده المتفرد بهذه الأمور، لكنهم جعلوا لله تعالى شركاء يعبدونهم من دونه عز وجل، فيزعمون أنهم ما يعبدونها إلا لتقربهم إلى الله زلفى، فتشفع لهم عند الله تعالى في الرزق والنصر وسائر الأمور الدنيوية، فقال الله تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

والمعنى: إن هؤلاء المشركين لم يخلصوا العبادة لله تعالى وحده؛ بل كانت شائبة بعبادة غيره من الأصنام والملائكة وعيسى عليه الصلاة والسلام معتقدين أنهم لا يعبدونها لشيء من الأشياء إلا لتقربهم إلى الله تعالى تقريبا^(١).

ولما كان حال المشركين في ناحية العبادة متخذين الأنداد والشركاء من دون الله تعالى، يدعونهم ويستغيثون بهم، ويطلبون منهم حاجاتهم الدنيوية، استخدم معهم القرآن الكريم أسلوب تقرير المخاطبين بطريق الاستفهام عن الأمور التي يسلمون بها حتى يعترفوا بما يشركون، وهو صورة

(٢) انظر: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص ٣١٣.

(١) انظر: فتح البيان، القنوجي، ١٢/٧٩.

لكن مع هذا الإقرار العام من المشركين إلا أن توحيدهم كان ناقصاً، لا ينقلهم إلى دائرة الإيمان؛ بل حكم الله تعالى عليهم بأنهم كافرون مشركون، فقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

فقد ذكر القرطبي أن الآية نزلت في تلبية مشركي العرب، فكانوا يقولون في تليبتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك^(١)، وورد أنهم كانوا إذا قالوا هذه التلبية، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ويلكم قد قد)^(٢).

قال ابن كثير^(٣): «أي حسب حسب، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وهذا هو الشرك الأعظم أن يعبد المرء مع الله إلهاً آخر، كما في الصحيحين عن ابن مسعود قلت: يا رسول الله، أيّ الذنوب أعظم؟ قال: (أن تجعل لله نداً وهو خلقك)^(٤).

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ٢٧٢/٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها، ٨٤٣/٢، رقم ١١٨٥، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٤١٨/٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: (الذي جعل لكم الأرض فراشاً)، ١٨/٦، رقم ٤٤٧٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، ٩٠/١.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾، وقوله: ﴿فَأَسْتَفِينَهُمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ [الصافات: ١١].

ويظهر من هذا أن جميع الخلق مفظورون على الإقرار والاعتراف بربوبية الله عز وجل، حتى المشركين أنفسهم، كما مرّ في الآيات السابقة وغيرها، ويصدق هذا الكلام قوله تعالى على لسان أنبيائه ورسله حين قالوا لأقوامهم الذين بعثوا إليهم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِمَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم: ١٠].

حتى فرعون نفسه الذي قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَخْلَاقِ﴾ [النازعات: ٢٤].

كان مقرراً ومعتقداً بربوبية الله تعالى في قرارة نفسه، لكنه تجاهل هذه الفطرة، وتظاهر بإنكار الله تعالى، ويدل على هذا قوله تعالى على لسان موسى عليه الصلاة والسلام حين قال له: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِ لَأَظُنُّكَ يَنْفِرَعُونَ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وقوله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَاهِدُوا بِهَا وَأَسْتَقْبَلْتَهَا أَنْفُسَهُمْ ظَلَمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

فتوحيد الربوبية وحده لا يكفي إلا ويكون معه توحيد الألوهية؛ حتى ينجو صاحبه من عذاب الله تعالى، بل هو حجة على صاحبه؛ إذ كيف يؤمن بتوحيد الربوبية ويشرك بتوحيد الألوهية! فتوحيد الألوهية من لوازم توحيد الربوبية، وهذا ما نعه الله تعالى على المشركين إذ قال: ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١].

فينبغي على المرء أن يخلص العبادة لله تعالى وحده. قال ابن القيم: «فما كان له سبحانه فهو متعلق بألوهيته، وما كان به فهو متعلق بربوبيته، وما تعلق بألوهيته أشرف مما تعلق بربوبيته، ولذلك كان توحيد الألوهية هو المنجى من الشرك دون توحيد الربوبية بمجرده، فإن عباد الأصنام كانوا مقرّين بأن الله وحده خالق كل شيء وربّه ومليكه، ولكن لما لم يأتوا بتوحيد الألوهية وهو عبادته وحده لا شريك له لم ينفعهم توحيد ربوبيته»^(١).

ثالثاً: تنزيه الله تعالى عن التعب والنصب في الخلق:

إن القدرة والخلق صفات كمال، وقد يعترىها النقص بالنسبة للمخلوقين، فعندما يصنع الإنسان شيئاً ما، فإنه يعترىه التعب والإعياء، فيكون هذا نقصاً في الكمال.

رقم ٨٦.

(١) عدة الصابرين، ص ٤٦.

أما بالنسبة لله عزّ وجلّ، فإنه قد خلق هذا الكون العظيم، وما فيه من مخلوقات عظيمة بما فيها الإنسان الذي يعجز عن إحصائها وعدّها، وخلقه تعالى للكون كان في مدة وجيزة جدّاً، وهي ستة أيام، ومع ذلك لم يصب الله تعالى تعب ولا نصب ولا إعياء. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

فالآية دليل على عظمة الله سبحانه الذي يقول للشيء: كن فيكون، حيث إن المعنى: ما تعبنا بالخلق الأول حتى نعجز عن الإعادة في الخلق الثاني، كما قال تعالى: ﴿أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]^(٢).

هذا وقد دّل الله تعالى على قدرته على الإعادة بعد الموت بأنه خلق السماوات والأرض على عظمهما وسعتهما، وإتقان خلقهما وما فيهما دون أن يكثرث بذلك، ولم يصب الله تعالى بخلقها إعياء ولا نصب، فكيف يعجز عن إعادة الناس بعد الموت وهو على كل شيء قدير؟!^(٣).

فقال عزّ وجلّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ يُقَدِرْ عَلَىٰ أَنْ يُخَيِّقَ الْمَوْتَ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ٦٠].

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٥٢/٢٨.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٨٧٣.

قَدِيرٌ ﴿[الأحقاف: ٣٣].

كما ردّ عليها في موضع آخر بقوله: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ﴾ [مريم: ٢١].

والتعبير في هذه الآية عن تكوين سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام بالفعل (يخلق)؛ لأن الخلق هو إيجاد من عدم، ولا يكون هذا إلا لله تعالى، أما في حق المخلوق فلا يقال: خلق، بل صنع واكتشف وركّب وغير ذلك مما يحمل المعنى نفسه.

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

فهذه الآية فيها ذم من الله تعالى للنصارى الذين حادوا عن الطريق المستقيم، فيقسم الله تعالى أنهم كافرون، وكفرهم متمثل في تغطيتهم الحق في تركهم نفي الولد عن الله تعالى، وادعائهم أن المسيح هو الله فريّة وكذباً عليه، فيأمر الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقول لهؤلاء الجهلة: لو كان عيسى عليه الصلاة والسلام إلهاً كما تزعمون لاستطاع أن يرده أمر الله تعالى إذا جاءه بإهلاكه، وإهلاك أمه التي هلكت، ولم يقدر على دفع ما نزل بها، فهذا حجة عليكم

قال الشوكاني: «الرؤية هنا هي القلبية التي بمعنى العلم، والهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدر، أي: ألم يتفكروا ولم يعلموا أن الذي خلق هذه الأجرام العظام من السماوات والأرض ابتداءً ولم يعي بخلقهن أي: لم يعجز عن ذلك ولا ضعف عنه»^(١).

وإن في الآية ردّاً على اليهود الذين زعموا أن الله سبحانه تعب من الخلق، فاستراح في اليوم السابع وهو يوم السبت.

رابعاً: يخلق ما يشاء:

تكرر قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ في القرآن الكريم في ستة مواضع.

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

فعندما بشر الله تعالى مريم عليها السلام بعيسى عليه الصلاة والسلام، تعجبت واستغربت هذا الأمر؛ وذلك لأنها علمت أنها لن تتزوج أبداً؛ لأنها كانت محررة لله تعالى، مخلصّة له في العبادة، والولد لا يأتي إلا بالزواج، فتمت الإجابة على سؤالها بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾

(١) فتح القدير، ٥/٣٢.

في أن المسيح عليه الصلاة والسلام هو بشرٌ كسائر البشر، وأن الله تعالى هو الذي لا يردُّ له أمر، ولا يغلب، ولا يقهر؛ بل هو الحي القيوم الذي يحيي ويميت، وهو حيٌّ لا يموت، كما أن الله تعالى له تصرف ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما، يبقى من يشاء، ويهلك من يشاء، لا يمنعه من ذلك مانع، ولا يردّه عن ذلك رادٌّ؛ بل ينقذ فيهم أمره، ويمضي فيهم قضاءه، وليس المسيح كما زعموا، فمن كان عاجزاً عن دفع ضرر أو سوء أراحه به غيره، فكيف يكون إلهاً؟! بل الإله المعبود بحق هو الذي ملك كل شيء، ويده تصرف كل ما في السماوات والأرض وما بينهما^(١).

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

والمعنى: أن الله تعالى يخلق ويختار ما يشاء، فالله تعالى: ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وذكر المفسرون احتمال الآية للمعاني الآتية:

الأول: أن هذا متصل بذكر الشركاء الذين يعبدونهم من دون الله تعالى واختاروهم، والمعنى: الاختيار لله تعالى وحده، وليس

لهم.

الثاني: المراد من الآية: أنه ليس لأحد من الخلق أن يختار؛ بل الاختيار هو لله تعالى وحده.

الثالث: إن هذه الآية نزلت جواباً عن اليهود حين قالوا: لو الرسول إلى محمد غير جبريل لآمنا به^(٢).

والآية مكية، ولم يكن اليهود وجدالهم في الفترة المكية! فالقول الثالث مستبعد!

الموضع الرابع: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

يخاطب الله تعالى عباده، ويقول لهم: إن الإله الذي يستحق أن يعبد هو الله تعالى الذي ابتداء خلقكم من ضعف، فكان الضعف أساس خلقكم، أو خلقكم من أصل ضعيف وهو النطفة، ثم انتقل بكم إلى حال الشباب وبلوغ الأشد، ثم جعل بعد القوة حال الضعف والشيوخوخة.

وقوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ أي: يخلق ما يشاء من ضعف وقوة وشباب وشيبة، فهو العليم بأحوالهم، والقدير على تدبيرهم، والاختلاف في هذه الأحوال دليلٌ بين وواضح على وجود

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٢١١.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٠/ ١٤٦.

الخالق العليم القدير^(١).

وإن كان على غير اختيار العباد، واستدل على مسألة الخلق بما يشاهد من أحوال الناس في تفضيلهم للأولاد الذكور على الإناث اللواتي كانوا يعدونهن من البلاء في الجاهلية، فبين الله تعالى أنه يهب لمن يشاء إناثاً فقط دون أن يكون بينهن ذكر، كما يهب لمن يشاء الذكور فقط دون أن يكون بينهم أنثى، أو لا يهب أيّ الصنفين لأحد فيجعله عقيماً لا يولد له. وبهذه الأصناف الأربعة تمت الدلالة على أن الله تعالى هو القادر على كل شيء^(٣).

وبعد استعراض هذه المواضيع الستة، يتبين أن الخلق من صفات الربوبية لله عزّ وجلّ، وهي صفة كمال، فالله سبحانه إذا أراد شيئاً كان ولا رادّ له، وما لم يشأ لم يكن ولا مكوّن له، ولا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع. ويلاحظ من ذلك أيضاً أن مفعول المشيئة محذوف في كل المواضيع، ويقدر حسب السياق الذي ورد فيه.

خامساً: يخلق ما لا يعلمون:

إن الله تعالى كما كانت له القدرة التامة على خلق ما يشاء، فكذلك له القدرة على خلق ما لا يعلمه الناس.

يقول الله تعالى في هذا: ﴿وَالْحَيَلُ وَالْإِنْعَالُ وَالْحَمِيرَ لَتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا

الموضع الخامس: قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

هذه الآية مسوقة لإحقاق حق، وإبطال باطل، فقد زعم النصارى أن عيسى عليه الصلاة والسلام هو الله تعالى، كما زعم المشركون أن الملائكة بنات الله، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، فبين الله تعالى استحالة اتّخاذ الولد في حقه تعالى، فلو أراد الله سبحانه أن يتخذ ولداً لاتخذ من جملة ما يخلق ما يشاء، ثم أكد الله تعالى تنزّهه عن ذلك، فهو الله المتّزه عما زعموه وافتروا به عليه كذباً وبهتاناً، وهو القهار لكل الكائنات المخلوقة، فكيف يتصوّر أن يتخذ من الأشياء الفانية ما يقوم مقامه؟!^(٢).

الموضع السادس: قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثِيًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾

[الشورى: ٤٩].

والمعنى: أن الملك الأعظم هو لله عزّ وجلّ وحده، فله ملك السماوات كلها على عظمها وارتفاعها وعلوها، وله ملك الأرض جميعها على تباينها واتساعها وتكاثف طبقاتها، فهو تعالى يخلق ما يشاء،

(١) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة، ٤/ ٣٥٤.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ٢٤٢.

(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٧/ ٣٥٣.

لَا تَعْلَمُونَ ﴿النحل: ٨﴾.

لا يعلمون^(١).

ويقول في موضع آخر: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

ويذكر النخجواني في تفسيرها: «سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا» وقدر الأصناف المتولدة المتزايدة برمتها ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ من الشجر والنبات بأجناسهما وأنواعهما وأصنافهما، ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: ذكورهم وإناثهم أنواعاً وأصنافاً وأشخاصاً، وكذا من جميع ما يعلمون من أجناس الحيوانات وأنواعها وأصنافها، ومِمَّا لَا يَعْلَمُونَ أيضًا من المخلوقات التي لا اطلاع لهم عليها؛ إذ ما من مخلوق إلا وقد خلق شفعا، إذ الفردية والوترية والصمدية لواجب الوجود، والقيومية المطلقة من أخص أوصاف الربوبية والألوهية لا شركة فيها للمصنوع المربوب أصلاً^(٢).

وهكذا فإن الله عز وجل يخلق ما يشاء مما نعلم ومما لا نعلم، فهناك مخلوقات عديدة لله تعالى يقصر العقل البشري عن علمها وتعدادها وحصرها، ومهما بلغ هذا العقل من التقدم والرقي إلا أنه يبقى عاجزاً عن علم جميع مخلوقات الله تعالى التي

فبعد أن عدّد الله تعالى مجموعة من النعم التي أنعمها على عباده من خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان، وخلق الأنعام، وعدّد ما فيها من منافع ومصالح للناس، ففيها دفاء من ناحية اتخاذ أصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها من الثياب والفرش والبيوت، كما تنتفعون بها بالأكل، ولكم فيها جمال تتجمّلون به في وقت راحتها وسكونها، ووقت حركتها وسرحها، كما ذلّلها لكم بركوبها فتحملكم إلى البلد الذي تقصدونه، وتحمل أحمالكم الثقيلة إلى البلاد البعيدة، فسبحانه هو الذي سخّر لكم ما تحتاجونه، فله الحمد على ذلك، ثم خصّ الخيل والبغال والحمير بالذكر لاستخدامها في الركوب تارة، ولأجل الجمال والزينة تارة أخرى.

ثم قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: «مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء، التي يركبها الخلق في البر والبحر والجو، ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم، فإنه لم يذكرها بأعيانها؛ لأن الله تعالى لا يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد، أو يعرفون نظيره، وأما ما ليس له نظير في زمانهم فإنه لو ذكر لم يعرفوه ولم يفهموا المراد منه، فيذكر أصلاً جامعاً يدخل فيه ما يعلمون وما

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٣٦.

(٢) الفواتح الإلهية ٢/ ٢٠٢.

فيكون معنى الآية: «وهو الذي خلق السماوات والأرض بقوله: (كن) المقترنة بالقدرة التي بها يقع إيجاد المخلوق بعد عدمه، فعبر عن ذلك بالحق»^(٢)، حيث إن أعظم ملامح العهد المكي في آياته القرآنية هو إثبات البعث والخلود، وبالتالي فإن خلق السماوات والأرض يثبت عملياً لأصحاب العقول أن الذي خلقهما حال كونها بالحق الراسخ قادرٌ على إحياء الخلق بعد مماتهم، ومن ثم مجازاتهم، وقد ورد الخلق مقترناً بالحق في معرض الحديث عن تنزيه الله تعالى عن الشريك، ومن ثم إنكار البعث، كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٣].

فمعنى هذه الآية أن الله تعالى خلق السماوات والأرض، وهما إلى زوال وفناء، ولكن خلقهما بالحق؛ للدلالة على قدرته عز وجل، وأنه من حقه على عباده أن يطيعوه، ومن الحق الذي له أنه يحيي الخلق بعد الموت، فهو الخالق تنزه عما يشركون من الأصنام، التي لا تقدر على خلق أي شيء^(٣).

وقد وردت آيتان مكيتان تثبتان أن الله تعالى لم يخلق السماوات والأرض عن

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣٠٩/٢.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦٨/١٠.

خلقها أول الخلق، والتي يخلقها إلى قيام الساعة.

سادساً: الحكمة من اقتران الخلق بالحق:

ورد ذكر الحق مرتبطاً بخلق السماوات والأرض في اثنتي عشرة آية، وجميع السور الواردة فيها تلك الآيات مكية، كما وردت آية مكية تثبت أن خلق السماوات والأرض لم يكن باطلاً، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلاً ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

فمعنى هذه الآية كما قال ابن عباس: لا لثواب ولا لعقاب. ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني أهل مكة هم الذين ظنوا أنهما خلقا لغير شيء، وأنه لا بعث ولا حساب، ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾^(١).

وهذا يدل على أن خلق السماوات والأرض بالحق في مفهومها الواضح العام ناسبت العهد المكي؛ لتناسبه مع الملامح العامة له، ويمكن التمثيل على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلَهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

(١) معالم التنزيل، البغوي، ٦٦/٤.

هو تلك السمات العقدية التي ذكرت، وقد وردت آيةٌ مدنيةٌ تثبت أن خلق السماوات والأرض لم يكن باطلاً، ولكن السياق يدل على هذا الرسوخ الإيماني الذي تمتع به أولو الألباب أصحاب العقول النيرة، جعلهم يقرّون بهذه الحقيقة الإيمانية، بأن الله رب كل شيء ما خلق السماوات والأرض باطلاً، فإن ذلك سيصير بإذن الله تعالى إلى الميعاد، وربنا سبحانه هو المتزّه عن أي نقص، ثم يدعو هؤلاء المتفكرون في خلقهما بأن ينجوا من عذاب النار، مع كامل الخضوع والتذلل والانكسار والتفويض لأمر الله تعالى^(٣)، والآية هي قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ قَوْلًا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

لعب، ولا تعب من خلقهما، فالآية الأولى هي قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينًا﴾ [الأنبياء: ١٦].

أي: لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما «إلا حجة عليكم أيها الناس، ولتعتبروا بذلك كله، فتعلموا أن الذي دبره وخلقه لا يشبهه شيء، وأنه لا تكون الألوهية إلا له، ولا تصلح العبادة لشيء غيره، ولم يخلق ذلك عبثاً ولعباً»^(١).

وأما الآية الثانية فهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

أي: ما مس الخالق وما أصابه إعياء؛ لأن الذي يستريح هو المريض المرهق، وتعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً^(٢).

وهذه الآية دليل واضح على قدرته تعالى على كل شيء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وبالتالي ليس غريباً أن يكون البعث الذي يجازى فيه الخلق جميعاً.

وليس معنى ما ذكر في الآيات المكية من مدلولات وحكم وأحكام أن الآيات المدنية خلقت من ذلك، ولكن ذلك يعني أن ما تمتاز به الآيات المكية المذكورة، وما لم تذكر

(٣) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين، ٣٤١/١.

(١) جامع البيان، الطبري، ٤١٩/١٨.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي، ٣٣٩/٣.

في حين حدّدت بعض الآيات المدة الزمنية لخلق السماوات والأرض وما بينهما، فكانت في ستة أيام.

ومن هذه الآيات: قوله تعالى: ﴿إِن رَّبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ السَّمَاءَ أَكْثَرُ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حِينًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسْحَرَاتٍ بَأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۗ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤].

وعن ابتداء الخلق يروي أبو هريرة رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال: (خلق الله تعالى التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل)^(١).

وإن هذا لا يعني أن هناك تعارضًا بين آية خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وهذا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب ابتداء الخلق وخلق آدم عليه الصلاة والسلام، ٤/٢٤٩، رقم ٢٧٨٩.

بداية الخلق

تتناول هذه السطور نماذج من بدايات الخلق، مثل: خلق السماوات والأرض، وخلق سيدنا آدم عليه السلام، وأن الله تعالى خلق مخلوقات قبل السماوات والأرض، وقبل سيدنا آدم عليه السلام، منه ما علمه البشر، ومنه ما لم يعلموه.

أولاً: خلق السماوات والأرض:

لقد تحدثت آيات كثيرة من القرآن الكريم عن خلق السماوات والأرض مع مجموعة من المخلوقات الأخرى التي أنعم الله تعالى بها على عباده.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَاقِ الَّذِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالنُّجُومِ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩].

الألباب، كما أظلم ليلها، فعمت الظلمة أرجاء السماء، وأظلم كذلك وجه الأرض، كما أخرج في السماء النور العظيم عندما خلق فيها الشمس، فانتشر الناس في النهار ينتفعون بمصالحهم، وأمور دينهم ودنياهم، ثم بعد ذلك خلق الأرض، وأودع فيها منافعها من الماء والمرعى، وتثبيت الجبال لها، فالذي خلق السماوات العظام وما فيها، وخلق الأرض الكثيفة وما فيها، لا بد أن يبعث الخلق المكلفين بعبادته، فيجازيهم على أعمالهم^(١).

أما قوله: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَكَفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُءِ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رِيساً مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاهُ لِلسَّائِلِينَ ١٠ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتُمَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ١١ فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ١٢ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ١٣﴾

[فصلت: ٩-١٢].

ففيه يذكر أن الأرض أسبق في الخلق من السماء، والظاهر أن هناك إشكالاً في المعنى يتعارض مع آيات النازعات، ولكن معنى آيات فصلت: أن الله عز وجل أمر

الحديث الذي يبين أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في سبعة أيام؛ فتكون الإجابة من عدة جوانب، منها:

إن العدد لا مفهوم له، ومن ثم فإنه قد لا ينحصر الأمر عند ستة أيام.

إن الخلق الأساس قد يكون في ستة أيام، أما التفاصيل فتقتضي أوقاتاً أكثر، والله أكبر وأعز وأعلم؛ لأن الله تعالى خالق كل شيء ومقدره، وهو الذي خلق الأسباب، وله القدرة المطلقة على تحويلها كيفما يشاء.

وعن مسألة أيهما أسبق في الخلق: السماء أم الأرض؟ ناقش هذه المسألة موضعان من كتاب الله تعالى، وهما: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ٣٧﴾ رَفَعَ سَعْتَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ٣٨﴾ وَأَعطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ مَخَضَهَا ٣٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ٤٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ٤١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ٤٢﴾ سَنَعَا لَكُمْ لَوْلَا نَعْمِكُمْ ٤٣﴾ [النازعات: ٢٧-٣٣].

فهذه الآيات تبين أن السماء أسبق في الخلق من الأرض، والمعنى: أن الله تعالى يذكر دليلاً واضحاً بيناً لمنكري البعث، ومستعدي إعادة إحياء الله تعالى للأجسام الميتة، فيقول الله تعالى: أأنتم أيها البشر، أشد خلقاً أم السماء ذات الجرم العظيم، والخلق القوي، والارتفاع الباهر، فقد بناها الله سبحانه، ورفع جرمها وصورتها، وسواها بإحكام دقيق، وإتقان يذهل أولي

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٩٠٩.

الذين يسترقون السمع^(١).

والناظر في هذين الموضوعين يرى أن آيات السورتين توهم في ظاهرهما الإشكال والتعارض، ولكن جبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما أزال هذا التعارض حين أتى إليه رجل، وقال له: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ، وعدّ له أربع مسائل، كان من ضمنها مسألة أيهما أسبق: خلق السماء أم الأرض؟ وساق له الآيات التي ذكرناها، فأجاب ابن عباس قائلاً: «وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسوّاهنّ في يومين آخرين، ثم دحا الأرض، ودحوها أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجمال والأكام وما بينهما في يومين آخرين فذلك قوله: ﴿دَحَاهَا﴾ وقوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾

فجعلت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخلقت السماوات في يومين^(٢).

وخلاصة القول: إن خلق الأرض نفسها كان في يومين، وكان متقدماً على خلق السماء، ثم كان خلق السماء وما فيها من أنوار وأجرام في يومين آخرين، ثم كان دحو الأرض المخلوقة وخلق ما فيها من

نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بتوبيخ المشركين الذين يكفرون بالله تعالى، وهو خالق السماوات والأرض، وكما سبقت الإشارة فإن المشركين يعترفون أن الله تعالى هو الخالق، ولكنهم يشركون في العبادة معه غيره من الأصنام والأوثان.

فبين الله تعالى في هذه الآيات أنه خلق الأرض في يومين، ثم جعل الجبال في الأرض رواسب لتثبيتها، وبارك الله تعالى فيها بما خلق من المنافع وإنبات الشجر، وخلق البحار والأنهار والدواب، كما قدر فيها أرزاق أهلها وما يصلح لعيشهم من التجارات والأشجار والمنافع في كل بلدة ما لم يجعله في بلدة أخرى، فكل هذه الأمور خلقها الله تعالى في أربعة أيام أخرى.

ثم خلق الله تعالى السماء، وسوّاهما، ثم أمر السماء والأرض أن تأتيا بما خلق فيهما من المنافع والمصالح للخلق.

وعلى هذا المعنى، فإن الله تعالى قال ذلك لهما بعد خلقهما، وهو قول الجمهور، فقالتا: أتيننا طائعين، فانقادا وأجابا لأمر الله تعالى، ففضى السماوات وجعلهن سبعاً، وأكمل بناؤهن، ثم أوحى الله تعالى في كل سماء أمرها، وزين السماء الدنيا بنجوم تضيئها، وحفظها الله تعالى من الشياطين

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣٤٢/١٥-٣٤٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه تعليقاً، كتاب التفسير، باب قوله: (ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة)، ٦/١٢٧.

قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك، والسهل والحزن، والخيث والطيب^(٣).

وشرف الله تعالى آدم عليه الصلاة والسلام حين خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، فقال تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَتَسْتَكْبِرُ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥].

والمعنى: ما منعك يا إبليس عن السجود لآدم الذي توليت خلقه بنفسي من غير واسطة أب أو أم؟^(٤)، فخلقه الله تعالى في صورة بديعة وشكل حسن، حيث قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة: ٧].

ثم علمه الله تعالى جميع مسميات الأسماء، فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

ففضله على جميع خلقه، حتى الملائكة، فأمرها الله تعالى بالسجود له عليه الصلاة والسلام سجود تكريم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ

ضروريات الخلق ومنافعهم في يومين آخرين. وهكذا تكون السماوات خلقت وما فيها في يومين، وخلق الأرض وما فيها في أربعة أيام، والله تعالى أعلم، وقد سبقت الإشارة إلى عظيم قدرة الله تعالى في تحويل الأسباب.

ثانياً: خلق آدم عليه الصلاة والسلام:

بعد أن خلق الله تعالى السماوات والأرض وما فيهما، خلق آدم عليه الصلاة والسلام يوم الجمعة الذي هو خير أيام الله تعالى كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة؛ فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها)^(١).

وكان الله تعالى قد خلقه من تراب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

أي: خلقه من تراب دون أب ولا أم؛ بل بكلمة ﴿كُنْ﴾ فكان آدم عليه الصلاة والسلام^(٢).

وورد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله خلق آدم من قبضة

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في القدر، ٣٥٨/٤، رقم ٤٦٥٩، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٣٦٢/١، رقم ١٧٥٩.

(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢٣/٢٣١.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة، ٥٨٥/٢، رقم ٨٥٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣/٢٦٣.

وقد ذكر القرآن الكريم هذه الحادثة، فقال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٥-٣٧].

أَبْنَى وَأَسْتَكْبَرُ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤].
وبعد ذلك خلق الله تعالى له زوجة حواء، فقال تعالى: ﴿وَكُنَّا يَٰهَا النَّاسُ أَنْتُمْ وَرَبُّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

فالله تعالى خلق حواء من ضلع آدم عليه الصلاة والسلام كما في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (استوصوا بالنساء؛ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ، وَإِنْ أَعْوَجَ شَيْءٌ فِي الضِّلْعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تَقِيْمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ) (١).
ثم أمره الله تعالى هو وزوجه أن يسكنا في الجنة، ويأكلا منها ما شاء، ولكن الله تعالى نهاهما عن أن يقربا شجرة عينها لهم، فإنهما إن قرباها وأكلا منها فسوف يكونان من الظالمين لأنفسهم، لكن الشيطان استزلهما، وأوقعهما في الخطيئة، فأكلا من الشجرة التي نهاها عنها، فخرجا من الجنة التي كانا ينعمان فيها، حيثئذ أمرهما الله تعالى بالهبوط من الجنة إلى الأرض، فهي موضع الاستقرار لهم، فلما شعر آدم عليه الصلاة والسلام بالذنب، علّمه الله تعالى كلمات يقولها، فيتوب الله تعالى عليه ويغفر له ذنبه (٢).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب خلق آدم وذريته، ٤/١٣٣، رقم ٣٣٣١، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٧٩/١.

معالم الخلق

نتناول هنا بعضاً من المعالم المتعلقة بالخلق، والتي يشير إليها القرآن الكريم عند حديثه عن الخلق، ومن تلك المعالم.

أولاً: الزوجية:

إن قاعدة الزوجية تمثل قاعدة مهمة من قواعد الخلق في هذه الأرض، وهناك العديد من الآيات القرآنية التي جاءت تدلل على هذه القاعدة، وهي في الوقت نفسه دليل على صدق النبي عليه الصلاة والسلام، وأن القرآن من لدن حكيم خبير.

فالمعرفة التي كانت موجودة في زمن النبي عليه الصلاة والسلام لا تمكّن من الكشف عن قاعدة الزوجية في الأحياء، فضلاً عن ميادين الوجود المختلفة، أما اليوم وفي ظل هذا التقدم العلمي المشهود، والاكتشافات الكونية المتسارعة في المجالات المختلفة، استطاع العلماء الكشف عن أشكال التزاوج والارتباط في كافة ميادين الحياة، ابتداءً بالذرة وانتهاءً بالمجرة؛ مما يؤكد صدق الوحي والنبوة.

ومن الآيات التي تقرّر هذه القاعدة قوله

تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ

تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

ففي هذه الآية حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق في هذه الأرض، وهي قاعدة

الزوجية في الخلق، وهي ظاهرة في الأحياء، ولكن كلمة ﴿شَيْءٍ﴾ تشمل غير الأحياء أيضاً، فالتعبير يقرّر أن الأشياء كالأحياء، مخلوقة على أساس الزوجية^(١).

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ

خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾: قيل: مصطحبين ومتلازمين،

إشارة إلى المتضادات والمتقابلات من الأشياء كالليل والنهار، والشقوة والسعادة، والهدى والضلالة، والأرض والسماء، والسواد والبياض، والصحة والمرض، والكفر والإيمان ونحو هذا.

وقيل: هي إشارة إلى الأنثى والذكر من

كل كائن حي، ويدل على ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [النجم:

٤٥] (٢).

ورجح الطبري القول الأول؛ لأنه

دليل على قدرته تعالى على خلق الشيء

وخلافه^(٣).

وختمت الآية بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ

تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لتعلموا أيها المشركون أن

الخالق الذي يستوجب العبادة واحد لا

شريك له، هو القادر على خلق الشيء

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣٣٨٥/٦.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ١٨١/٥،

تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤٢٤/٧،

الجواهر الحسان، الثعالبي، ٣٠٥/٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٤٣٩/٢٢.

وخلق فيه الأشجار خلق من كل نوع من الأنواع اثنين فقط، فلو قال: خلق زوجين، لم يعلم أن المراد النوع أو الشخص، أما لما قال: ﴿اِثْنَيْنِ﴾ علمنا أن الله تعالى أول ما خلق من كل زوجين اثنين، لا أقل ولا أزيد، والحاصل أن الناس فيهم الآن كثرة إلا أنهم لما ابتدءوا من زوجين اثنين بالشخص هما آدم وحواء، فكذلك القول في جميع الأشجار والزرع»^(٣).

ثانياً: الأطوار:

يعدّ خلق الإنسان من آيات الله العظيمة، خاصة إذا علمنا أن كل طور من الأطوار التي مرّ فيها خلق الإنسان هو آيةٌ ودليلٌ على صدق الوحي والنبوة، فالقرآن الكريم أخبر عن هذه الأطوار قبل أن تتوصل إليها الاكتشافات العلمية الحديثة.

وإذا أردنا الحديث عن المراحل والأطوار لخلق الإنسان لا بد لنا من تقسيمه إلى قسمين:

الأول: مراحل خلق الإنسان الأول (آدم عليه الصلاة والسلام).

والثاني: مراحل خلق نسله (خلق الإنسان في بطن أمه)، وذلك كما يأتي:

وخلافه، وابتداء زوجين من كل شيء، بخلاف ما لا يقدر على ذلك.

وهو دليل على المغايرة بين المخلوق والخالق، فهو المتفرد في ذاته وصفاته وأفعاله، حيث يدرك الناس تفرد الخالق من خلال ما يشاهدون من ظواهر تزواج الأشياء وتركيبها، وارتباطاتها، وتوازنها، على نحو يستحيل معه العبث، والارتجال، والمصادفة^(١).

وخلق الكون يقوم على مبدأ الزوجية، وقد جاءت الآيات مدللة على ذلك، ومن مخلوقات الكون التي يتمثل فيها مبدأ الزوجية النباتات.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلْنَا فِيهَا رَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الرعد: ٣].

يقول سيد قطب: «إن كل الأحياء وأولها النبات تتألف من ذكر وأنثى، حتى النباتات التي كان مظهرها أن ليس لها من جنسها ذكور، تبين أنها تحمل في ذاتها الزوج الآخر، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعة في زهرة، أو متفرقة في العود، وهي حقيقة تتضامن مع المشهد في إثارة الفكر إلى تدبر أسرار الخلق بعد تلمي ظواهره»^(٢).

و«قيل: إنه تعالى أول ما خلق العالم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٤٣٩/٢٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤٢٤/٧.

(٢) في ظلال القرآن، ٢٠٤٦/٤.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ٧/١٩.

١. مراحل خلق الإنسان الأول (آدم عليه الصلاة والسلام).

١. الطين.

وهو ذلك المركب من تراب وماء الذي يتكوّن منه جسد الإنسان، فبداية خلق الإنسان من التراب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

ومن الماء الذي يدخل في خلق كل شيء حي، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

فإذا اختلط التراب مع الماء أصبح طيناً، قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة: ٧].

وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].

«والمراد به جنس الإنسان وأصله من خلاصة سلّت من طين، أو أول أفرادهِ وهو آدم عليه الصلاة والسلام، وهذا دليل كاف على قدرة الله تعالى ووحدانيته، واتصافه بكل صفات الكمال»^(١).

وقد وصف الله تعالى هذا الطين باللزب، ﴿فَأَسْتَفِينَهُمْ أَمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ [الصفات: ١١].

أي: اللاصق، وقيل: اللازق، والفرق بينهما أن اللاصق: هو الذي قد لصق بفضه

(١) التفسير المنير، الزحيلي، ١٨/١٨.

بعض، واللازق: هو الذي يلتزق بما أصابه، وقيل: اللازب اللزج^(٢).

ويذكر سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم أن قبضة التراب التي خلق منها آدم كانت من جميع الأرض؛ لذلك خرجت ذريته متفرعة متنوعة مختلفة، منها الأسود والأبيض، والطويل والقصير، والصالح والطالح، قال عليه الصلاة والسلام: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبْضِهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزَنُ وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ)^(٣).

٢. الحمأ المسنون.

وهي المرحلة الثانية بعد الطين، فإذا ترك الطين أصبح حمأ مسنوناً، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦].

والحمأ: الطين الذي تغيّر واسودّ لونه من طول مجاورة الماء، ومسنون: اختلف أهل التفسير في معناه، فقيل: مصوّر من سنة الوجه، أو منصوب ليبس ويتصوّر، كأنه أفرغ الحمأ فصوّر منها تمثال إنسان أجوف،

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦٩/١٥.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة البقرة، ٥٤/٥، رقم ٢٩٥٥. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٣٦٢/٢، رقم ١٧٥٩.

٢. مراحل نسل آدم عليه الصلاة والسلام (خلق الإنسان في بطن أمه).

بينت لنا الآيات الكريمة المراحل والأطوار التي يمر فيها خلق الإنسان وهو في بطن أمه، فكما أن القرآن الكريم تحدّث عن مراحل خلق الإنسان الأول، كذلك تدرّج في الحديث عن خلق سلالة هذا الإنسان، ومن الآيات التي تشير إلى هذه المراحل قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَيْتِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّ أَحْسَنَ أَعْيُنِ السَّمَاءِ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤَفِّقُ وَمِنْكُمْ مَنْ يُضَلِّقُ إِلَى آذَانِ الْعَمْرِيِّ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِئَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١١) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ (١٢) ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

فهذه الآيات وغيرها توضّح الأطوار التي يمرّ فيها خلق الإنسان، فبعد أن خلق

أو متّين من سنتت الحجر على الحجر إذا حككته به، فإن ما يسيل بينهما يكون متّناً^(١).

٣. الصلصال.

فبعد أن أصبح الطين حملاً مسنوناً يجف بعدها، ويصبح صلصالاً كالفخار، قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤].

فالصلصال: الطين اليابس، والفخار: الخزف الذي طبخ بالنار، والمعنى: أنه خلق الإنسان من طين يشبه في يسهه الخزف^(٢).
٤. نفخ الروح.

في المراحل الثلاث الأولى لا روح في آدم عليه السلام، فإن الله تعالى خلق آدم عليه السلام من طين وصوره، ثم صار صلصالاً؛ أي: ييس الطين بعد تصويره، ثم نفخ الله الروح في جسد آدم عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ (٧١) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٧٢) [ص: ٧١-٧٢].
وإضافة الروح إلى نفسه تعالى دليل على أنه جوهر شريف علوي قدسي^(٣).

[انظر: آدم: خلق آدم]

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢١٠/٣، باب التأويل، الخازن، ٥٤/٣.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ١٦١/٥، محاسن التأويل، القاسمي، ١٠٣/٥.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٤١٠/٢٦.

آدم عليه الصلاة والسلام وخلقت حواء من ضلعه، تبين الآيات مراحل خلق نسله، وأول هذه المراحل:

١. النطفة الأمشاج.

وهي اختلاط ماء الرجل - الذي يحمل ملايين الحيوانات المنوية - مع ماء المرأة فتكون النطفة.

قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ٤].

وقال أيضًا: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيمًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

أمشاج: أي ماء الرجل، وماء المرأة يختلطان في الرحم فيكون منهما الولد^(١)، وهي أول مرحلة من مراحل خلق الإنسان، ثم تأتي المرحلة الثانية وهي:

٢. العلقة.

وهي الدم المتجمد^(٢)، وسميت بذلك لكونها تعلق في جدار الرحم، فبعد أن يلحق الحيوان المنوي البويضة في رحم المرأة في مدة أربعين يومًا، تتحول النطفة إلى دم متجمد، يلتصق بجدار الرحم مدة أربعين يومًا أيضًا، حتى تتحول إلى الطور الثالث

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢٨٥/٨، لباب التأويل، الخازن، ٣٧٦/٤.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥١٥/٣، البحر المديد، ابن عميرة، ٥١٢/٣، في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢٤١٠/٤.

وهو:

٣. المضغة.

وهي القطعة الصغيرة من اللحم بقدر ما يمضغ، وهذا الطور يمر بمرحلتين: المضغة غير المخلقة، والمضغة المخلقة، فالمضغة في أول أمرها تكون غير مخلقة، أي: غير ظاهر فيها شكل الخلق، ثم تكون مخلقة، والمراد: تامة الخلق بتشكيل الوجه ثم الأطراف^(٣)، ثم يأتي الطور الرابع وهو:

٤. العظام.

وفي هذا الطور تتحول قطعة اللحم إلى هيكل عظمي، ثم يأتي الطور الخامس وهو:

٥. كساء العظام باللحم.

حيث يغطى العظم بما يستره ويشده ويقويه، وهو اللحم؛ لأن اللحم يستر العظم، فجعل كالكسوة له.

يقول سيد قطب في معرض حديثه عن هذا الطور: «وهنا يقف الإنسان مدهوشًا أمام ما كشف عنه القرآن من حقيقة في تكوين الجنين لم تعرف على وجه الدقة إلا أخيرًا بعد تقدم علم الأجنة التشريحي؛ ذلك أن خلايا العظام غير خلايا اللحم، وقد ثبت أن خلايا العظام هي التي تتكون أولاً في الجنين، ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظهور خلايا العظام، وتمام

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٩٨/١٧، التفسير المنير، الزحيلي، ١٥٦/١٧.

وهكذا خلق الله تعالى الإنسان في عدة أطوار؛ حيث أنشأه بالتدرج طورًا بعد طور حتى صار في أحسن تقويم، وهو -جل شأنه- قادر على أن يقول له: كن فيكون، ولكنه سبحانه اختار لنفسه سنة التدرج في الإنشاء، وهذه هي سنة الله في خلقه؛ لذلك وجب علينا أن نأخذ هذا التدرج بعين الاعتبار في تربية الإنسان وتنشئته.

[انظر: الإنسان: خلق الإنسان]

ثالثًا: الأجل:

خلق الله تعالى الإنسان وكتب أجله في الدنيا، فالأجل بيد الله تعالى.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

أي: أن الله يقبض النفس البشرية عند انتهاء آجالها، ويمسك الأنفس التي قضى عليها بالموت الحقيقي، ولا يردها إلى الدنيا، ويرد الأنفس النائمة إلى وقت الموت الحقيقي^(٤).

والأجل: المدة المحددة والمضروبة

الخلق، باب ذكر الملائكة، ٤/١١١، رقم ٣٢٠٨.

(٤) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ٢/٢٢٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٥/٢٦٠.

الهيكل العظمي للجنين^(١)، ثم يأتي الطور السادس وهو:

٦. الخلق الآخر.

وهو جنين الإنسان ذو الخصائص المتميزة، التي تميزه عن غيره من المخلوقات، فيكون مستعدًا للارتقاء والتميز والتكيف^(٢)، فتبارك الله أحسن الخالقين.

أما عن المدة الزمنية لكل طور من الأطوار فقد جاء تحديدها في السنة النبوية، كما في حديث ابن مسعود، وهي أربعون يومًا لكل مرحلة، حتى يكسو الله العظام لحمًا وينشأ خلق آخر، فيستمر هذا الخلق في بطن أمه بقية زمن الحمل، حتى يخرج طفلًا، قال صلى الله عليه وسلم: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكًا فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع، فيسبق عليه كتابه، فيعمل بعمل أهل النار، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة)^(٣).

(١) في ظلال القرآن، ٤/٢٤٥٩.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء

للشيء^(١)، وقد أخبر الله تعالى أنه قضى لعباده أجلين، أجلاً لمدة حياة كل فرد منهم، ينتهي بموت ذلك الفرد، وأجلاً لإعادة الأموات بعد موتهم، وانقضاء عمر الدنيا.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ. ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢].^(٢)

واختلف أهل التفسير في معنى الأجلين، فقيل: عن مجاهد وابن عباس: الأول مدة الدنيا، والثاني عمر الإنسان إلى حين موته. وقيل: الأول قبض الأرواح في النوم، والثاني: قبض الروح عند الموت.

وقيل: الأول ما يعرف من أوقات الأهلة والبروج وما يشبه ذلك، والثاني: أجل الموت.

وقيل: الأول لمن مضى، والثاني لمن بقي ولمن يأتي^(٣).

والآية حمالة لكل المعاني، والله أعلم بمراده.

وقد جاءت كلمة الأجل في العديد من الآيات القرآنية وتحمل المعاني السابقة، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٣١/٧.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢٤٠/٣، فتح القدير، الشوكاني، ١١٣/٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٥٦/١١، البحر المديد، ابن عجيبة، ٩٦/٢.

يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ [النحل: ٦١].

أي: ولكن يؤخّرهم إلى أجل مسمى ليتوالدوا، وفي تفسير هذا الأجل قولان: القول الأول: وهو قول عطاء عن ابن عباس: أنه يريد أجل القيامة، والقول الثاني: أن المراد منتهى العمر، ووجه القول الأول أن معظم العذاب يوافيهم يوم القيامة، ووجه القول الثاني أن المشركين يؤاخذون بالعقوبة إذا انقضت أعمارهم وخرجوا من الدنيا^(٤).

وقد يأتي الأجل ويحمل معنى وقت نزول العذاب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمَلٌ لِّيَ فِئْتَنِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ [يونس: ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

«أي: وقت معين محدود ينزل فيه عذابهم من الله»^(٥).

كما أن الأجال محسومة لا يزداد فيها ولا ينقص منها، ولن يموت حي حتى يكمل ما له من عمر، وذلك لما روي عن الصادق المصدوق أنه قال: (إِنَّ أَحَدَكُمْ يَجْمَعُ خَلْقَهُ

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٠/٢٢٩.

(٥) فتح القدير، الشوكاني، ٢٣١/٢.

كان من الخلافة أن لا نكون متماثلين متطابقين، بل أراد سبحانه أن نكون مختلفين في المواهب؛ لأن الناس لو كانوا صورة مكررة في المواهب، لفسدت الحياة، فلا بد أن تختلف مواهبنا؛ لأن مطلوبات الحياة متعددة، إذًا فلا بد من أن تتحقق إرادة الله في قوله سبحانه: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾، أي: أنه تعالى خالف بين عبادَه فجعل بعضهم فوق بعض في الرزق، والعقل، والقوة، والعلم، وهذا التفاوت بين الخلق في الدرجات ليس لأجل العجز، فالله تعالى منزه عن صفات النقص، وإنما لأجل الابتلاء، فيكون الجزاء أو العقاب منه سبحانه (٢).

يقول الإمام الشعراوي عند تفسيره لهذه الآية: «إن كل واحد فيكم مرفوع في جهة مواهبه، ومرفوع عليه فيما لا مواهب له فيه؛ لأن الحق يريد أن يتكاتف المخلوقون، ولا ينشأ التكاتف تفضلاً، وإنما ينشأ لحاجة، فلا بد أن تكون إدارة المصالح في الكون اضطرارًا، وهذه هي هندسة المكون الأعلى سبحانه» (٣).

وقد بين الله تعالى الهدف والغاية من هذا التفاضل بين الخلق في العديد من الآيات.

في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقًا مثل ذلك، ثم يكون مضغًا مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكًا فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد (١).

[انظر: الأجل: أجل الإنسان]

رابعًا: التفاضل:

شرف الله تعالى بني آدم وكرمهم، وفضلهم، ورفع درجاتهم على غيرهم من سائر مخلوقاته.

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْآلَةِ وَالْبَحْرِ وَرَفَعْنَاهُمْ مِنَ الطِّيبِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

ولقد جعل الله تعالى الإنسان خليفته في الأرض، وكان من لوازم كون الإنسان خليفة أن يعمر الأرض في تكافل بين الناس وترابط، ولا يكون ذلك وهم في درجة واحدة.

يقول المولى تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَفَعُولٌ رَجِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٤/١٩٢، باب التأويل، الخازن، ٢/١٧٩، الوسيط، طنطاوي، ٥/٢٣١.
(٣) تفسير الشعراوي، ٧/٤٠٢٧.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ٤/١١١، رقم ٣٢٠٨.

قال تعالى: ﴿أَمْ يَرْقِصُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ^١ نَحْنُ قَسَمًا لِيَنبَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ [الزّخرف: ٣٢].

فالتفاوت في الرزق جعل هذا مسخرًا لهذا، والعكس، فعلنا ذلك؛ ليستخدم بعضهم بعضًا في حوائجهم، ويعاون بعضهم بعضًا في مصالحهم، وبذلك تنتظم الحياة، وينهض العمران. ويعم الخير بين الناس، ويصل كل واحد إلى مطلوبه على حسب ما قدر الله تعالى^(١).

وبيّن سبحانه أن التفاضل بين البشر كما هو في الدنيا فهو في الآخرة أيضًا، قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ^٢ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ [الإسراء: ٢١].

ففي هذه الآية إشارة إلى هذه الدرجات المتفاوتة بين الناس، فيما أمدهم به الله سبحانه وتعالى في هذه الدنيا، إذ فيهم من وسّع الله له في الرزق، فملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وفيهم من لا يملك شيئًا من ذلك، وبين هؤلاء وأولئك درجات، هذا كله في الدنيا، وهم في الآخرة كذلك، درجات متفاوتة، فريق في الجنة،

(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة، ١٩٠/٢، التفسير القرآني للقرآن، الخطيب، ٤٦٩/٨.
 (٣) انظر: الدر المنثور، السيوطي، ١٢٨/١.
 (٤) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٤٤٥/٤.

خامسًا: التنوع في مادة الخلق:

خلق الله تعالى الكون في أبداع صورة، وخلق فيه المخلوقات في صورة تظهر كمال القدرة وتنفي الألوهية عن غيره، فتنوّعت مخلوقاته في مادة الخلق، أما الجن فإن أصل خلقها من نار كما تقرر ذلك الآيات.

قال تعالى: ﴿وَالجَانَّ خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارٍ^١ السَّمُورِ ﴿[الحجر: ٢٧].

قال ابن عباس في قوله: ﴿مِنْ نَّارٍ السَّمُورِ﴾ الحارة التي تقتل، وقال ابن مسعود: ﴿السَّمُورِ﴾ التي خلق منها الجان جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم^(٣).

وقال أيضًا: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ^٢ مِنْ نَّارٍ ﴿[الرحمن: ١٥].

والمارج: اللهب الصافي الذي لا دخان فيه، وقيل: هو المختلط بسواد النار^(٤). أما الملائكة فقد بيّن لنا الرسول صلى الله عليه وسلم أنها مخلوقة من نور، فعن

سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ لَيْنٍ ثُمَّ قَصَّوْا أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢].

وقد تحدثت آيات القرآن الكريم عن خلق آدم عليه الصلاة والسلام في أكثر من موضع، تم تناولها فيما سبق.

عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجن من مارح من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)^(١).

أما باقي الأحياء على وجه الأرض فقد خلقت من ماء، فالماء هو العنصر الذي خلق الله منه كل شيء سوى الملائكة والجن مما هو حي؛ لأن الملائكة خلقوا من النور، والجن خلق من النار كما بيّنا.

قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كَانَا رَتْقًا فَفَنَقْنَهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ويدخل في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ جسم الإنسان، بل يمكن لنا أن نقول: وقد خلقه الله تعالى من الماء.

يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤].

فعند الحديث عن مراحل خلق الإنسان تبين أن الإنسان مخلوق من تراب.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِنَا أَنْ خَلَقْنَا مِنَ تُرَابٍ نَفْسًا إِذَا أَنْتَ بَشَرٌ نَنْشُرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

وأضيف إليه الماء فأصبح طينًا، قال

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرفائق، باب في أحاديث متفرقة، ٢٢٩٤/٤، رقم ٢٩٩٦.

مقاصد الخلق

إنَّ الله سبحانه وتعالى لم يخلق الخلق سدىً ولا عبثاً؛ وإنَّما خلق سبحانه الخلق لغاية عظيمة، وحكمة جليلة، خلق سبحانه الخلق بالحق.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ ۖ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩].

وقال سبحانه: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣].

فالخلق كله قد خلقه الله تعالى بالحق، ولا يخلو خلق خلقه الله من حكمة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها، وإن من أجل تلك الحكم التثبيح على أن لها خالقاً قادراً حكيماً^(١).

إنَّ الله سبحانه وتعالى حكيم في فعله وخلقه، عليم بمصالح عباده، لا يصدر عنه إلا الحق، فهو العليم الحكيم، وهو اللطيف الخبير، وما خلق الخلق باطلاً، قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلاً ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

قال السعدي رحمه الله: «يخبر تعالى (١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٧٦/١١».

أنه ما خلق السماوات والأرض عبثاً، ولا لعباً من غير فائدة؛ بل خلقها بالحق وللحق؛ ليستدل بها العباد على أنه الخالق العظيم، المدبّر الحكيم، الرحمن الرحيم، الذي له الكمال كله، والحمد كله، والعزة كلها، الصادق في قيله، الصادقة رسله فيما تخبر عنه، وأن القادر على خلق السماوات والأرض -مع سعتها وعظمتها- قادر على إعادة الأجساد بعد موتها؛ ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته^(٢).

فهذه بعض الحكم من خلق السماوات والأرض؛ أما خلق الإنس والجن فقد بين الله سبحانه الغاية من خلقهم، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٦١﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٦٢﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٦٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

وقد أنكر سبحانه على من ظنوا أنهم خلقوا عبثاً مهملين، لا حساب عليهم، ولا ثواب ولا عقاب فقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَالِكِ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

وقد بين الله تعالى في آيات كثيرة من كتابه العزيز الغاية من خلق الكون، وعرف

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٥٢٠.

عباده مقاصد إيجادهم، وعلّة خلقهم، وفيما يأتي بيان لمقاصد خلق الثقلين من الجن والإنس خاصة، أمّا مقاصد خلق المخلوقات الأخرى فنكتفي بما أشرنا إليه.

أولاً: العبادة:

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَا خَلَقَ الْجَنِّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادَتِهِ، وَقَدْ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ ذَلِكَ لِعِبَادِهِ أَعْظَمَ بَيَانٍ، فَقَالَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥١) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ (٥٨) [الذاريات: ٥٦-٥٨].

وقد ذكر المفسرون عدّة أقوال في معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، فقال بعضهم: المعنى ما خلقتهم إلا ليعبدني السعداء منهم ويعصيني الأشقياء؛ فالحكمة المقصودة من إيجاد الخلق -والتي هي عبادة الله تعالى- حاصلة بفعل السعداء منهم دون الأشقياء، وقال بعضهم: معنى ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلا ليقروا لي بالعبودية طوعاً أو كرهاً؛ لأنّ المؤمن يطيع باختياره، والكافر مدعن منقاد لقضاء ربه جبراً عليه، وقال بعضهم: معنى ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلا لأمرهم بعبادتي؛ فيعبدني من وقفته منهم لعبادتي دون غيره (٢).

فعبادة الله هي الغاية العظمى لخلق الجنّ والإنس؛ فما خلقوا إلا ليستجيبوا لربّهم، وليذعنوا له سبحانه بالطاعة والعبادة؛ وذلك من خلال طاعة رسله، والتزام أمره، واجتناب نهيه، والخضوع لشرعه تعالى (١).

فقد رجّح الإمام الطبري رحمه الله القول الثاني، والذي ذهب إلى أنّ المراد من الآية: أنّ الله تعالى ما خلق الجنّ والإنس إلا ليدعنوا له سبحانه بالعبودية طوعاً أو كرهاً (٣).

فهذا هو المقصد الأعظم من خلق الجنّ والإنس، وهذه هي الغاية الكبرى، وما عدا ذلك من المقاصد والغايات لخلق الثقلين إنّما هو مندرج تحت هذه الغاية الكبرى، وعلى العباد -إن أرادوا الفوز برضوان الله تعالى- أن يحققوا تلك الغاية من خلقهم؛ فعليهم أن يعرفوا ربّهم، ويعلموا دينه وشرعه، ويطيعوا رسله، ويسلموا لأمره، ويجتنبوا معصيته، فإن فعلوا ذلك فقد

ورجّح القول الأخير جماعة من المفسرين، منهم الإمام الشنقيطي رحمه الله إذ قال: «التحقيق إن شاء الله في معنى هذه الآية الكريمة: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، أي: إلا

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ٤٢/٨.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٤٤٤/٢٢.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥٥/١٧.

بعضاً، قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل^(٢)، يقومون بتنفيذ أمر الله تعالى على أرضه، وإمضاء أحكامه^(٣)، واختار الله تعالى آدم عليه الصلاة والسلام وذريته لتلك المهمة العظيمة، وقد أخبر سبحانه ملائكته بذلك الأمر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَكَسِفُكَ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

فالمراد بالخليفة في الآية الكريمة: إما آدم بتنفيذ أوامره سبحانه، وإما أن يكون المراد آدم عليه الصلاة والسلام وذريته، وقال بعض المفسرين: سمى الله آدم عليه الصلاة والسلام خليفة؛ لأنه صار خلفاً من الجنّ الذين كانوا يسكنون الأرض قبله^(٤). ولا شك أن مقصد استخلاف الإنسان في الأرض تابع لمقصد العبادة لله تعالى؛ إذ إنّ الله تعالى أراد من عباده أن يعبدوه، وجعلهم خلفاء في الأرض ليقوموا عليها بالعبادة المطلوبة منهم، والعبد بعمارتها لأرض الله تعالى من خلال تنفيذ شرعه سبحانه، وفعل ما أمر، واجتناب ما نهى

لأمرهم بعبادتي، وأبتليهم، أي: أختبرهم بالتكاليف، ثم أجازيهم على أعمالهم؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وإنما قلنا: إنّ هذا هو التحقيق في معنى الآية؛ لأنه تدل عليه آيات محكمات من كتاب الله؛ فقد صرح تعالى في آيات من كتابه أنه خلقهم ليبتلهم أيهم أحسن عملاً، وأنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم، فتصريحه جل وعلا في هذه الآيات بأنّ حكمة خلقه للخلق، هي ابتلاؤهم أيهم أحسن عملاً، يفسر قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾، وخير ما يفسر به القرآن القرآن^(١).

وما رجّحه الشنقيطي هو الراجح - والله أعلم -؛ فالله تعالى خلق الجنّ والإنس وأراد منهم أن يعبدوه، وهذه إرادة شرعية، أي أنه سبحانه أمرهم بعبادته؛ فيطيعه من وبقوا للطاعة، ويعصيه من لم يوقفوا لها، وليست إرادة الله تعالى في الآية إرادة كونية؛ إذ لو كانت كذلك لزم أن يكون العباد جميعهم عابدين لله تعالى؛ لأنّ الإرادة الكونية لا تخالف ولا تعارض.

[انظر: العبادة: مكانة العبادة]

ثانياً: الاستخلاف:

أراد الله تعالى أن يجعل في الأرض خليفة، خلفاً من خلقه يخلف بعضهم

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣٣٧/١.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٦٣/١.

(٤) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ٢١/١.

(١) أضواء البيان، ٧/٤٤٥.

بهم ما يفعل المبتلي (٢).

ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: كل الصفات التي تجعل العمل أحسن في ميزان الحق فهي واردة هنا، بلا تخصيص بصفة دون غيرها، ولم يقل: أكثر عملاً، بل أحسن عملاً، ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله عز وجل، على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين حبط وبطل (٣).

وهذا المقصد من الخلق تابع للمقصد الأكبر، وهو العبادة؛ إذ إن أمر الله تعالى عباده بعبادته وطاعته والاستسلام لأمره ونهيه بمنزلة الاختبار والامتحان لهم؛ فمن استجاب لربه فقد فاز وأفلح، ومن عصى وأدبر فقد خاب وخسر.

رابعاً: الاختلاف:

إن من مقاصد خلق الله تعالى للعباد آته سبحانه وتعالى أرادهم أن يكونوا مختلفين؛ ولو أراد سبحانه أن يجعلهم مجتمعين على أمة واحدة لفعل؛ ولكنه سبحانه أرادهم مختلفين.

وقد أخبر سبحانه وتعالى عن ذلك في قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً

(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ٤٤١/١٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤١٨/٧.

عنه وزجر، يكون بذلك قد حقق العبودية المطلوبة منه لله تعالى؛ إذ إن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأعمال، والأقوال الظاهرة والباطنة.

ثالثاً: الابتلاء:

لقد ذكر الله تعالى في غير آية من كتابه العزيز أن المقصد والحكمة من خلق السماوات والأرض، والموت والحياة، هي ابتلاء العباد واختبارهم أيهم أحسن عملاً، فمن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ إِنَّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

وقوله تعالى في سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَبْلُوهَا إِيَّاهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

وفي مطلع سورة الملك: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوكُمْ إِنَّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الملك: ١-٢].

ومعنى قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾ أي: يختبركم، والاختبار من الله تعالى هو إظهار ما يعلم سبحانه من خلقه (١)، فهو سبحانه بأمره ونهيه للعباد أراد أن يظهر ما قد علم منهم من طاعة وعصيان، فهو سبحانه يفعل

(١) تفسير السمرقندي، ١٣٩/٢.

وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ
وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمَلَانِ جَهَنَّمَ
مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٨﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

وقد اقتضت حكمته أن لا يزالوا مختلفين، مخالفين للصراف المستقيم، متبعين للسبل الموصلة إلى النار، كل يرى الحق، فيما قاله، والضلال في قول غيره، وقوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: اقتضت حكمته أنه خلقهم مختلفين؛ منهم المؤمن ومنهم الكافر؛ ليكون منهم السعداء والأشقياء، والمتفقون والمختلفون، والفريق الذين هدى الله، والفريق الذين حقت عليهم الضلالة؛ ليتبين للعباد عدل الله سبحانه وحكمته، ولتقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء^(١).

وعلى هذا يمكن الجمع بين الآيتين: الآية الأولى، قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

والآية الأخرى، قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

بأن الإرادة - التي أرادها الله تعالى من عباده - في الآية الأولى إرادة شرعية، حيث

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١١٤/٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٩٢.

أمر الله تعالى عباده بعبادته وطاعته، والآية الأخرى تدل على الإرادة الكونية القدرية^(٢)؛ فالله سبحانه قدر من الأزل، وكتب عنده في اللوح المحفوظ أن الناس سيختلفون، وهذا ما أرادته الله تعالى، أراد سبحانه أن يكون له أهل إيمان وطاعة، يجزيهم الجنة والنعيم، وأراد أن يكون من عباده أهل كفر وضلال، يملأ بهم جهنم، والله تعالى يفعل ما يريد، ﴿وَاللَّهُ بِحُكْمِكُمْ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١].

وهذا المقصد لخلق العباد تابع للمقصد الأكبر وهو العبادة؛ فإن الله تعالى خلق العباد وأراد منهم أن يعبدوه، وهو سبحانه يعلم أن منهم من يستجيب ويطيع، ومنهم من يأبى ويعصي، ويعلم سبحانه أنهم سيختلفون، سيفترقون إلى فريقين؛ فريق السعداء الذين أطاعوا ربهم، وفريق الأشقياء الذين عصوا أمر ربهم، وكل ذلك أرادته الله تعالى.

[انظر: الاختلاف: الاختلاف سنة الله في الخلق]

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنيطي، ٤٤٨/٧.

عَذَابًا لِّتَارٍ ﴿١١١﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

فخلق الله تعالى فيه دلالات عظيمة، وبراهين بيّنة جليلة، أراد الله تعالى من عباده أن يقفوا عليها، ويسترشدوا بها، وفيما يلي وقفة مع أهم دلالات الخلق.

أولاً: دلالة الخلق على استحقاق الخالق للعبودية:

إنّ الفطر السليمة، والعقول البصيرة تدرك أنّ من خلق وأوجد، واعتنى بخلقه لهو جدير وحده بأن يطاع ويعبد، فكيف يعبد سواه؟! ومن يستحق العبادة إلا إياه؟! وهل يستوي من خلق بمن هو مخلوق لا يملك حتى نفسه؟! ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

وهل يستوي من أبدع هذا الكون وجعل فيه تلك الآيات الباهرة، والنعم المستفيضة بمن لا يقدر على نفع نفسه، قال الله تعالى مخبراً عن نفسه العلية، ممتناً على عباده، هادياً لهم ومرشداً: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا مِّنْ ثَلَبُوسٍ نَّهْيًا وَتَرَى مِنَ الْجِبَالِ مَوَازِيرَ فِيهِ وَلِيَنبَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالْقَنُ فِي الْأَرْضِ رَوِيٌّ أَن تَعْبُدَ كُفْرًا وَأَنَّهَا سُبُلٌ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتْنِي وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا

دلالة الخلق

لا شكّ في أنّ الخلق يدلّ على وجود الخالق، ولا ريب أنّ عظم الخلق يدلّ على عظم الخالق سبحانه وتعالى، وإنّ العبد كلّما تفكّر فيما حوله من مخلوقات لله تعالى؛ من سماء، وأرض، وجبال، وأشجار، وأنهار، وأصناف الدواب والطيور، يزداد إيماناً بعظمة الخالق سبحانه، بديع السماوات والأرض، الذي فطر هذا الكون ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَقَدَرَهُ لِقَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

ولا شكّ أنّ في هذا الخلق العظيم -الذي تعجز عن مجرد تصوّر عظمته واتساعه عقول البشر- لا شكّ أنّ فيه دلالات عظيمة، وبراهين جليلة، لا يغفل عنها إلا من أعمى الله بصره، وأصمّ أذنه، وعطل عقله، وختم على قلبه.

ولقد مدح الله تعالى عباده الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض، ويستدلون بما حولهم من خلق عظيم، وآيات باهرة على عظيم قدرة ربهم تعالى، وعلى صدق رسله، وصدق وعده، وتحقق وعيده، قال سبحانه: ﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا سُبْحَانَكَ قَوْلًا

تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ [النحل: ١٤-١٧].

وما أكثر الآيات في كتاب الله تعالى التي يوجه الله تعالى فيها عباده إلى التأمل والتفكير في ملكوت السماوات والأرض؛ ليعلموا من ذلك عظمة الخالق المبدع، وليعلموا أنه لا يجوز أن يعبد غيره، ولا ينبغي أن يدعى سواه، ﴿يَأْتِيَا النَّاسَ أُعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَكُمْ تَتَقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

ففي هذه الآيات وأمثالها في كتاب الله تعالى استدلل الله تعالى لعباده على وجوب عبادته وحده دون سواه بأنه سبحانه وحده هو الخالق المدبّر؛ فما دام أنه سبحانه الخالق، وهو سبحانه الذي خلق العباد من العدم، وأنعم عليهم بالخلق والإيجاد، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، فهو سبحانه المستحق وحده للعبادة^(١).

إنّ مما تقرّه العقول وتسلم له الألباب أنّ المخلوق ضعيف محتاج إلى خالقه، وهو مربوب لربه الذي أوجده وربّاه، ولا يمكن له أن يستغني عنه بأي حال، وإذا كان الأمر كذلك فهل يجوز أن يعبد ذلك المخلوق

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣٠٧/١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٤.

الضعيف من دون خالقه؟! قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ وَخَلَقَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

ففي هذه الآية ردّ الله تعالى على أولئك الضالين المشركين بكلمة واحدة؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾، والضمير في هذه الكلمة إما عائد على أولئك المشركين، فيكون المعنى: أنّ هؤلاء المشركين جعلوا من لم يخلقهم شريكاً لخالقهم في العبادة وهذه غاية الجهالة؛ إذ المستحق للعبادة هو الخالق لا غيره، وإما أن يكون الضمير عائداً على المعبودين من دون الله تعالى، فيكون المعنى: أنّ المشركين اتخذوا شركاء في العبادة، وهؤلاء الشركاء هم أصلاً مخلوقون لله تعالى، فكيف يناسب أن يعبدوا من دونه سبحانه؟!^(٢).

وقد أنكر الله -تعالى- في آيات كثيرة من كتابه العزيز -على من عبدوا مخلوقات مثلهم، لا تخلق شيئاً؛ وإنما هي مخلوقة أصلاً.

قال الله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْفَأَقَّ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦].

قال الشنقيطي رحمه الله: «أشار تعالى في هذه الآية الكريمة إلى أنه هو المستحق لأن يعبد وحده؛ لأنه هو الخالق ولا يستحق

(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان، ٤/١٩٧.

[الأعراف: ١٩١-١٩٥].

إنّ هذه المخلوقات في غاية العجز والضعف، لا تملك لنفسها -فضلاً عن غيرها- نفعاً ولا ضرراً، فكيف يقدم من كان عنده عقل على عبادة من كان هذا حاله؟!

إنّ الله تعالى هو خالق كل شيء، ولا خالق غيره، وكل ما سواه سبحانه مخلوق له، فوجب أن يكون وحده المعبود، ووجب ألا يصرف شيء من العبادة لغيره، ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

ثانياً: دلالة الخلق على قدرة الخالق على البعث:

إنّ من الدلالات العظيمة التي يدلّ عليها خلق الله تعالى الدلالة على قدرته سبحانه وتعالى على البعث، وإعادة الموتى للحياة من جديد؛ لأجل أن يحاسبوا على أعمالهم، وقد كان كفّار العرب ومن جاء بعدهم من الكفار ينكرون تلك الحقيقة العظيمة، فجاء القرآن الكريم بأعظم الأدلة وأصدقها لإثبات هذه الحقيقة العظيمة.

وقد استدلّ القرآن الكريم على حقيقة البعث بعدة أدلة، من أهمها دليل الخلق، وهو دليل بديهي، يوجب العقل، ويستلزمه المنطق، ولا يمكن أن يطرأ عليه شك أو

من الخلق أن يعبدوه إلا من خلقهم وأبرزهم من العدم إلى الوجود»^(١).

وقال سبحانه في آيات أخرى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

وبين سبحانه حال تلك المعبودات من دونه فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ٢٠-٢١].

وما أعظم ذلك البيان الربّاني الذي فيه إيقاظ للقلوب الغافلة، وتنبية للعقول الضالة، التي ظنت -ولو لحظة واحدة- أنّه يجوز أن يعبد غير الله تعالى من مخلوقات ضعيفة فانية، ضعيفة عاجزة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١١١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١١٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الْهُدَىٰ لَا يَسْتَجِيبُوا سِوَاةَ عَلَيْهِمْ أَدْعُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صٰمِتُونَ ﴿١١٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿١١٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ يَمْسُورٌ ﴿١١٥﴾ أَيَمْ أَمْ لَمْ يَأْتِكُمْ يَمْشُرُونَ ﴿١١٦﴾ أَيَمْ أَمْ لَمْ يَأْتِكُمْ يَمْشُرُونَ ﴿١١٧﴾ أَيَمْ أَمْ لَمْ يَأْتِكُمْ يَمْشُرُونَ ﴿١١٨﴾ أَيَمْ أَمْ لَمْ يَأْتِكُمْ يَمْشُرُونَ ﴿١١٩﴾ أَيَمْ أَمْ لَمْ يَأْتِكُمْ يَمْشُرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾

(١) أضواء البيان، ٢/ ٢٣٩.

ريب. ريب. خَلَقَهُمْ؛ لِيَزُولَ رَيْبُهُمْ؛ وَيَذْهَبَ شَكُّهُمْ فِي

قضية البعث والحساب^(١).

إِنَّ الْعَقْلَ يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ الْإِبْجَادَ الْأَوَّلَ

أَعْظَمَ بَرَهَانَ عَلَى الْإِبْجَادِ الثَّانِي، وَهَذَا مَا

أَخْبَرَ بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَمَا

بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدْنَا عَلَيْكَ إِنَّا كُنَّا

فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال سبحانه ردًا على من سألوا: من

يعيدنا بعد الموت والفناء؟ ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ

أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١].

إِنَّ دَلِيلَ الْخَلْقِ أَوَّلَ مَرَّةٍ عَلَى الْخَلْقِ مَرَّةً

أُخْرَى دَلِيلٌ قَوِيٌّ عَظِيمٌ، لَا يَرْفُضُهُ إِلَّا مَنْ

فَقَدَ عَقْلَهُ، وَنَسِيَ أَصْلَهُ، فَبِحَسَبِ الْإِنْسَانِ أَنْ

يَذْكَرَ نَشْأَتَهُ الْأَوَّلَى؛ لِيَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَادِرٌ

عَلَى الْبَعْثِ وَالْإِحْيَاءِ؛ لِذَا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ

مَنْ أَنْكَرُوا الْبَعْثَ قَدْ نَسُوا أَصْلَهُمْ، وَنَسُوا

نَشْأَتَهُمُ الْأَوَّلَى.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا

وَفَيْسَى خَلْقُهُ، قَالَ مَنْ يُعْجِبُ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾

[يس: ٧٨].

فكان الردّ من الله تعالى على ذلك

الجاحد بتذكيره بخلقه الأول: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا

الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾

[يس: ٧٩].

قال الشنقيطي رحمه الله: «ولأجل قوة

دلالة هذا البرهان المذكور على البعث

ويتلخص دليل الخلق على البعث في

أنّ الله تعالى الذي خلق الخلق أوّل مرة

قادر على إعادة الخلق مرة أخرى؛ فالذي

أوجدهم أوّلًا يوجد لهم ثانيًا، بل العقل

يقتضي أن تكون الإعادة أهون من الإيجاد

الأول.

وقد ورد في كتاب الله تعالى آيات كثيرة

تثبت حقيقة البعث بدلالة الخلق، فالذي

خلق هذا الكون العظيم، وفطر السماوات

والأرض، قادر سبحانه على بعث العباد بعد

موتهم.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُمُ الْجَبَدُ

عَلَيْهِمْ أَن يَحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

[الأحقاف: ٣٣].

ومن استدلال القرآن الكريم على حقيقة

البعث بدلالة الخلق أنّ الله تعالى دعا أولئك

المتشككين في حقيقة بعثهم إلى تذكر أصل

خلقتهم، كيف كانوا في الأصل ترابًا، ثم

تناسلوا من نطفة، ثم علقه، ثم مضغه، إلى

أن صاروا بشرًا مكتملين.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي

رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن

نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ

مُخَلَّقَةٍ لَّنَبِّئَنَّ لَكُمْ﴾ [الحج: ٥].

يدعوهم ربهم إلى النظر إلى مبدأ

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٦/ ٩٣.

التفكير في المخلوقات

وردت العديد من الآيات التي تدعو إلى التفكير والتأمل في خلق الله تعالى، والتي تدلل على وحدانية الله تعالى، وقدرته، ومن هذه الآيات:

أولاً: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ أَلْوَانِ السَّمَاءِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْمَاءِ الَّتِي يُبْحِرُ فِيهَا الْبِحَارُ بَيْنَ أَلْوَانٍ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ سَمَاءٍ مِّنْ مَّاءٍ فَأَخْيَرَ بِهِ الْبُرُوقَ فِيهَا مِنَ الْمُنَمَّرِ وَالسَّحَابِ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَنَضْرِبُ الْبَرْقِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقد اشتملت هذه الآية على ثماني آيات كونية عظيمة دالة على عظمة الخالق تعالى وقدرته، وفيها دعوة للتفكير والتأمل في خلق الله تعالى.

أول هذه الآيات الدالة على عظم خالقها، هي السماوات، فالسماوات على ارتفاعها طبقات مفصولة ومرفوعة بغير عمد، واتساعها، وكواكبها السيارة، وبروجها، ودوران فلكها، فهي من أكبر الآيات الدالة على قدرة المولى تعالى، وثانيها الأرض في مداها، وبسطها، وكثافتها، وانخفاضها، وجبالها، وبحارها، وقفارها، ووهادها، وعمرانها، وما فيها من المنافع العظيمة من معادن عظيمة بداخلها، والتي تشهد على

بين جل وعلا أن من أنكر البعث فهو ناسي للإيجاد الأول، كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا مِّثْلَ خَيْلٍ خَلَقَهُ﴾ [يس: ٧٨]؛ إذ لو تذكر الإيجاد الأول على الحقيقة لما أمكنه إنكار الإيجاد الثاني^(١)، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَكَرَيْكَ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾ [مریم: ٦٦-٦٧].

[انظر: البعث: منهج القرآن في تقرير مبدأ البعث]

[البعث]

(١) أضواء البيان، ٤/ ٢٦٥.

وحداية خالقها^(١).

ثم جاءت الآية الثالثة والمتمثلة في اختلاف الليل والنهار وتتابعهما دون تأخر، كما قال الله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آيِلُ سَابِقَ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

تارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتقارضان، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ آيِلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي آيِلُ﴾ [فاطر: ١٣].

فكل ذلك دليل على الخالق المبدع^(٢). قال الخازن: «والآية في الليل والنهار أن انتظام أحوال العباد بسبب طلب الكسب والمعيشة يكون في النهار، وطلب النوم والراحة يكون في الليل، فاختلف الليل والنهار إنما هو لتحصيل مصالح العباد»^(٣). أما الآية الرابعة فتمثلة في قوله تعالى: ﴿وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَمَافِعُ النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٦٤].

أي: تسخير البحر لحمل السفن التي تنقل الناس من جانب لآخر، ونقل تجارتهم^(٤)، «والآية في الفلك تسخيرها وجريانها على

وجه الماء، وهي موقرة بالأثقال والرجال، فلا ترسب، وجريانها بالريح مقبلة ومدبرة، وتسخير البحر لحمل الفلك مع قوة سلطان الماء، وهيجان البحر فلا ينجلي منه إلا الله تعالى»^(٥).

ثم الآية الخامسة في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤].

ففي هذه الآية دليل على قدرة الله تعالى، وفيها عبرة لأولي الألباب والعقول، ومدعاة للتفكير والتأمل في خلقه تبارك وتعالى، وذلك أنه قال: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [البقرة: ٢٢].

فمن شأن الماء الذي يسقي الأرض أن ينبع منها، لكنه جعل الماء نازلاً عليها من ضدها وهو السماء. وفي الآية عبرة علمية، أوضحها أهل العلم، «وذلك أن جعل الماء نازلاً من السماء يشير إلى أن بخار الماء يصير ماء في الكرة الهوائية عند ما يلامس الطبقة الزمهريرية، وهذه الطبقة تصير زمهريراً عند ما تقل حرارة أشعة الشمس، ولعل في بعض الأجرام العلوية وخاصة القمر أهوية باردة يحصل بها الزمهرير في ارتفاع الجو، فيكون لها أثر في تكوين البرودة في أعلى الجو، فأسند إليها بإنزال الماء مجازاً عقلياً»^(٦).

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤٧٤/١، البحر المديد، ابن عجيبة، ١/١٩١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤٧٤/١.

(٣) لباب التأويل، ١/١٠٠.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤٧٤/١.

(٥) لباب التأويل، ١/١٠٠.

(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢/٨٣.

الجهات الأربع، وتنوعها مع ذلك، فتارة تأتي للعذاب، وتارة للرحمة، مع تفريق للعلماء بينهما^(٤)، وما بينها من صفات مختلفة كلها دليل على قدرة الله تعالى.

وأخر هذه الآيات متمثلة في قوله تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤].

«والآية في ذلك أن السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الأدوية العظيمة يبقى معلقاً بين السماء والأرض»^(٥).

ثانياً: قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧].

هذه آية أخرى تحث على التفكير في مخلوقات الله تعالى، وجاء الحث في هذه الآية على التفكير في إحدى مخلوقاته التي كانت معهودة عند العرب، فقال الله تعالى: أفلا ينظر أهل مكة والناس عامة نظر اعتبار وتفكر إلى الإبل، وهي الجمال، جمع بعير، ولا مفرد لها من لفظها^(٦)، كيف جاء خلقها دقة في الإبداع، ودليل على كمال قدرته تبارك وتعالى.

وقد يتساءل البعض: لماذا جاء ذكر الإبل دون غيرها من الحيوانات التي كانت

وكما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣].

ثم تأتي الآية السادسة في قوله تعالى: ﴿وَبَيِّنْ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤].

أي: جعل فيها من جميع الحيوانات، على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه لا يخفى عليه شيء من ذلك^(١)، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

«قال ابن عباس: يريد كل ما دب على وجه الأرض من جميع الخلق من الناس وغيرهم، والآية في ذلك أن جنس الإنسان يرجع إلى أصل واحد وهو آدم، ثم ما فيهم من الاختلاف في الصور والأشكال والألوان والألسنة والطباع والأخلاق والأوصاف إلى غير ذلك، ثم يقاس على بني آدم سائر الحيوان»^(٢)، وعبر عنه بالبه لتصوير ذلك الخلق العجيب المتكاثراً^(٣).

والآية السابعة في قوله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾ [البقرة: ١٦٤].

أي: هبوبها من جهات مختلفة، وهي

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤٧٤/١، البحر المديد، ابن عجيبة، ١/١٩١.

(٥) لباب التأويل، الخازن، ١/١٠٠.

(٦) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٣٠/٢١٤.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤٧٤/١.

(٢) لباب التأويل، الخازن، ١/١٠٠.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢/٨٤.

حيوان آخر، وإن جعلت حمولة استغلّت بحمل الأحمال الثقيلة التي لا يستقل بها سواها، ومنها أن هذا الحيوان كان أعظم الحيوانات وقعاً في قلب العرب؛ ولذلك فإنهم جعلوا دية قتل الإنسان إبلاً، وكان الواحد من ملوكهم إذا أراد المبالغة في إعطاء الشاعر الذي جاءه من المكان البعيد أعطاه مائة بعير؛ لأن امتلاء العين منه أشد من امتلاء العين من غيره»^(٣).

فكيف يصح للمشركين إنكار البعث والمعاد واستبعاد وقوع ذلك، وهم يشاهدون الإبل التي هي غالب مواشيهم وأكبر المخلوقات في بيئتهم، كيف خلقها الله على هذا النحو البديع، من عظم الجثة، ومزيد القوة، وبديع الأوصاف، فهي خلق عجيب، وتركيب غريب، ومع ذلك نراها تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للولد الصغير، وتؤكل، ويتنفع بوبرها، ويشرب لبنها، وتصبر على الجوع والعطش، وترعى كل ما يتيسر لها من شوك وشجر وغير ذلك، مما لا يكاد يراه سائر البهائم، فتبارك الله أحسن الخالقين^(٤).

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَوَسَّى خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِزُّ الْعَظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ١٥]

(٣) المصدر السابق.

(٤) انظر: روح المعاني، الألوسي، ٣٢٩/١٥، محاسن التأويل، القاسمي، ٤٢٦/٩، التفسير المنير الزحيلي، ٢١٤/٣٠.

موجودة عند العرب؟ نقول: إن الإبل أكثر الحيوانات ذات قيمة عند العرب، ولما لها من خصائص تميّزها عن باقي الحيوانات.

وقد جاء ذكر هذه الخصائص في قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْفَعُ خَلْقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفٌّ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَنْفُسَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِهِ بِغِيهِ إِلَّا يَشِقُّ الْإِنْفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٥-٧].

«والأنعام: الإبل والبقر والغنم، وأكثر ما يقال: نعم وأنعام للإبل»^(١)، وإن شيئاً من سائر الحيوانات لا يجتمع فيه هذه الخصال فكان اجتماع هذه الخصال في هذا المخلوق من العجائب^(٢).

قال الإمام الرازي: «إنه في كل واحد من هذه الخصال أفضل من الحيوان الذي لا يوجد فيه إلا تلك الخصلة؛ لأنها إن جعلت حلوبة سقت فأروت الكثير، وإن جعلت أكلة أطعمت وأشبعت الكثير، وإن جعلت ركوبة أمكن أن يقطع بها من المسافات المديدة ما لا يمكن قطعه بحيوان آخر، وذلك لما ركب فيها من قوة احتمال المداومة على السير والصبر على العطش، والاجتزاء من العلفات بما لا يجتزئ

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦٨/١٠.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٤٤/٣١.

جانب الاستبعاد من البلى والتفتت (٢).

لهذا لَقَّنَ الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم الجواب الذي يخرس أسننة المنكرين للبعث، فقال تعالى: ﴿قُلْ بِحَسَبِهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

أي: يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها، أين ذهبت، وأين تفرقت وتمزقت (٣).

فحريٌّ بهذا المجادل أن ينظر في خلقه قبل التنكر والاستبعاد، فلو فكر وتدبر ملياً في ذلك لما أنكر قدرة الله تعالى على إعادة الخلق، وعلى كل إنسان أن يمعن تفكيره في خلق الله تعالى الدال على قدرته، وتفردته بالألوهية.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

في هذه الآية حثٌّ من المولى تعالى للإنسان على التفكير والتدبر في خلقه، ففيها دلالة واضحة على أن الإنسان معجز في خلقه، وفيه دليل على توحيد الله، وصدق ما جاءت به الرسل، فالله تعالى يخاطبنا قائلاً: أفلا تنظرون نظرة متأمل معتبر ناظر بعين البصيرة، فتستدلون بذلك على الخالق

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٣٠٨/٢٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥٦٤/٦، التفسير الوسيط، الطنطاوي، ٥٦/١٢.

تحدث هذه الآية والتي قبلها عن بعض أهل الكفر الذين جادلوا النبي صلى الله عليه وسلم وأنكروا قدرة الله تعالى على البعث والجزاء، فكان الرد من الله تعالى عليهم، ودفع شبهتهم.

قال أهل التفسير: إن هذه الآية نزلت في العاص بن وائل السهمي، وقيل: هو أبي بن خلف الجمحي، وذلك أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم حائل فقال: يا محمد، أتري أن الله يحيي هذا بعد ما رم؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (نعم، ويبعثك الله ويدخلك النار) فنزلت هذه الآية (١).

فالله تعالى يرد على منكري البعث، الذين يستبعدون عودة العظام إلى الحياة بعد أن تصبح بالية، فهذا الإنسان الجاهل المجادل بالباطل، ضرب مثلاً هو في غاية الغرابة، حيث أنكر قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، وعلى بعثهم يوم القيامة، فقال: - دون أن يفطن إلى أصل خلقته - من يحيى العظام وهي بالية أشد البلى؟

ونسي أصل خلقه من تراب، ثم من نطفة، ثم المراحل التي يمر فيها خلق الإنسان، واختاروا العظم للذكر؛ لأنه أبعد عن الحياة؛ لعدم الإحساس فيه، ووصفوه بما يقوي

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧٥/١٥، لباب التأويل، الخازن، ١٣/٤.

الرازق، المتفرد بالألوهية، فليست نفوسكم مخلوقة بالصدفة ولا بالطبيعة، وإنما خالقها الله القادر على كل شيء، وعلى البعث وإعادة الحياة، ففي النفس من بداية خلقها، وتنقلها من مرحلة إلى أخرى، وما في تراكيب أعضائها، واختلاف الألوان والألسنة والصور، من الأدلة المقنعة على قدرته تعالى ووحدانيته^(١).

قال ابن عجيبة: ﴿وَقَدْ أَنْفَسَكَ﴾ آيات وعجائب القدرة؛ إذ ليس شيء في العالم إلا وفي الأنفس له نظير، مع ما فيه من الهيئات النابعة والمصادر البهية، والترتبات العجيبة، خلقه نطفة، ثم علقته، ثم مضغته، ثم فصلها إلى العظم والعصب والعروق، فالعظام عمود الجسد، ضمّت بعضها إلى بعض بمفاصل وأقفال ربطت بها، ولم تكن عظماً واحداً؛ لأنه إذ ذاك يكون كالخشبة، لا يقوم ولا يجلس، ولا يركع ولا يسجد لخالقه، ثم خلق تعالى المخ في العظام في غاية الرطوبة ليرطب بيس العظام، ويتقوى به، ثم خلق سبحانه اللحم وعباه على العظام، وسدّ به خلل الجسد، واعتدلت هيئته، ثم خلق سبحانه العروق في جميع الجسد جداول، يجري الغذاء منها إلى أركان الجسد، لكل موضع من الجسد عدد

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤٠/١٧، محاسن التأويل، القاسمي، ٤٠/٩، التفسير المنير، وهبة الزحيلي، ١٩/٢٧.

معلوم، ثم أجرى الدم في العروق سيالاً خائراً، ولو كان يابساً، أو أكتف مما هو فيه، لم يجر في العروق، ثم كسى سبحانه اللحم بالجلد كالوعاء له، ولولا ذلك لكان قشراً أحمر، وفي ذلك هلاكه، ثم كساه الشعر وقايةً وزينةً، ولين أصوله، ولم تكن يابسة مثل رؤوس الإبر، وإلا لم يهنه عيش، وجعل الحواجب والأشفاق وقايةً للعين، ولولا ذلك لأهلكهما الغبار والسقط، وجعلها سبحانه طوع يده، يتمكن من رفعها عند قصد النظر، ومن إرخائها على جميع العين عند إرادة إمساك النظر عما يضر ديناً ودنياً، وجعل شعرها صفّاً واحداً لينظر من خلالها، ثم خلق سبحانه شفتين تنطبقان على الفم تصونان الحلق والفم من الرياح والغبار، ولما فيهما من كمال الزينة، ثم خلق الله سبحانه الأسنان ليتمكن من قطع مأكوله وطحنه، ولم تكن له في أول خلقته؛ لثلا يؤذي أمه، وجعلها ثلاثة أصناف: قسم يصلح للكسر؛ كالأنياب، وقسم يصلح للقطع؛ كالرباعية، وقسم يصلح للطحن؛ كالأضراس، إلى غير ذلك مما في الإنسان من عجائب الصنع وبدائع التركيب^(٢).

ثم ختم سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّبِعُونَ﴾ أي: تنظرون نظر من يعتبر، قال قتادة: «من تفكر في خلق

(٢) البحر المنير، ابن عجيبة، ٤٧١/٥.

نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله
للعبادة^(١).

موضوعات ذات صلة:

آدم، الأرض، الإنسان، البصر، التفكير،
الجبال، الحكمة، الحيوان، السماء، السير

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤١٩/٧.